

الحج

بين كمال الإيمان وعظمة التيسير

وما على الحاج قبل سفره

جمع وترتيب
من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ
أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان
يحفظه الله تعالى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

• أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ،
وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ
ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

• أَمَّا بَعْدُ:

الْحَجُّ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَفَرَضٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ

فَالْحَجُّ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَفَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى، ثَبَتَتْ
فَرَضِيَّتُهُ بِالْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَالْإِجْمَاعِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ
عَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وَقَالَ ﷺ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»^(١): «أَيُّهَا
النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا».

وَأَخْرَجَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ فِي «مُسْنَدِ الْفَارُوقِ»^(٢) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) «صحيح مسلم» (١٣٣٧).

(٢) «مسند الفاروق» لابن كثير (١ / ٤٤٨، رقم ٢٩٤)، وقال: «رواه الحافظ أبو بكر
الإسماعيلي في «مسند عمر»، من حديث الأوزاعي، وهو إسناد صحيح عنه»، ومن
طريق: الأوزاعي، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩ / ٢٥٢)، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،
عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: «مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ وَلَمْ يَحُجَّ حَتَّى
مَاتَ فَأَقْسِمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا».

قَالَ: «مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ وَلَمْ يَحُجَّ؛ فَسَوَاءٌ عَلَيْهِ يَهُودِيًّا مَاتَ أَوْ نَصْرَانِيًّا».

وَالْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَى وُجُوبِ الْحَجِّ وَرُكْنِيَّتِهِ، وَإِنَّمَا يَجِبُ الْحَجُّ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ مُسْتَطِيعًا بِيَدْنِهِ، مَالِكًا لِلزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ، وَاجِدًا أَمْنِ الطَّرِيقِ، وَأَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَرْأَةِ أَحَدَ مَحَارِمِهَا. (*)



=

وأخرجه أيضا العدني في «الإيمان» (رقم ٣٨)، والفاكهي في «أخبار مكة» (١/ رقم ٨٠٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/ رقم ٨٦٦١)، ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ٢٦٥، ترجمة ٣٦٠٤)، من طرق: عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُعَيْمٍ، عَنْ الضَّحَّاكِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَهُوَ: ابْنُ عَرَزَبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنَمٍ، عَنْ عُمَرَ... بِهِ، وَهُوَ الْأَصَحُّ عَنِ الضَّحَّاكِ، كَمَا فِي «العلل» للدارقطني (٢/ ١٧٤ - ١٧٥، مسألة ١٩٩)، وحسن إسناده الألباني في «الضعيفة» (١٠/ ١٦٦، رقم ٤٦٤١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الْحَجُّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ | ١٢ -

مِنْ فَضَائِلِ الْحَجِّ وَأَهْدَافِهِ

لِلْحَجِّ فَضَائِلٌ عَظِيمَةٌ بَيَّنَّتْهَا نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَمِنْ هَذِهِ الْفَضَائِلِ:

١ - أَنَّهُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَسَائِرِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَدَلِيلُ ذَلِكَ: عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي؛ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ».

قَالَ: «فَقَبَضْتُ يَدِي».

قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟».

قَالَ: قُلْتُ: «أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ».

قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟».

قُلْتُ: «أَنْ يُغْفَرَ لِي».

قَالَ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

(١) أخرجه مسلم (١٢١).

٢- وَمِنْ فَضَائِلِ الْحَجِّ أَيُّضًا: أَنَّ الْحَاجَّ يَعُودُ مِنْ حَجِّهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ^(١).

٣- وَمِنْ فَضَائِلِ الْحَجِّ: أَنَّهُ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْجِهَادِ وَهُوَ أَفْضَلُهَا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! تَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ؛ أَمْ لَا نَجَاهِدُ؟».

قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ أَفْضَلُ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ^(٢).

٤- وَمِنْ فَوَاضِلِ الْحَجِّ وَفَضَائِلِهِ: الْفَوْزُ بِأَعْلَى الْمَطَالِبِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ ^(٣).

* وَلِلْحَجِّ أَهْدَافُهُ الْعَظِيمَةُ؛ فَمِنْهَا:

١- الْحَجُّ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاسْتِجَابَةٌ لِنِدَائِهِ، وَهَذِهِ الْاسْتِجَابَةُ وَهَذَا الْإِمْتِثَالُ تَتَجَلَّى فِيهِمَا الطَّاعَةُ الْخَالِصَةُ، وَالْإِسْلَامُ الْحَقُّ.

٢- وَمِنْ أَهْدَافِ الْحَجِّ: أَنَّ فِيهِ ارْتِبَاطًا بِرُوحِ الْوَحْيِ؛ لِأَنَّ الدِّيَارَ الْمُقَدَّسَةَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٥٢١، و١٨١٩، و١٨٢٠)، وَمُسْلِمٌ (١٣٥٠)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٥٢٠).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٧٧٣)، وَمُسْلِمٌ (١٣٤٩).

هِيَ مَهْبِطُ الْوَحْيِ، وَكُلَّمَا ارْتَبَطَ الْمُسْلِمُونَ بِتِلْكَ الْبِقَاعِ الطَّاهِرَةِ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَى الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ، الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَبَلَغُوا شَرْعَهُ.

٣- وَفِي الْحَجِّ إِعْلَانٌ عَمَلِيٌّ لِمَبْدَأِ الْمَسَاوَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَذَلِكَ حِينَمَا يَقِفُ النَّاسُ جَمِيعًا مَوْقِفًا وَاحِدًا فِي صَعِيدِ عَرَافَاتٍ، لَا تَفَاضُلَ بَيْنَهُمْ فِي أَيِّ عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا.

٤- وَمِنْ أَهْدَافِ الْحَجِّ: أَنَّهُ تَوْثِيقٌ لِمَبْدَأِ التَّعَارُفِ وَالتَّعَاوُنِ؛ حَيْثُ يَقْوَى التَّعَارُفُ، وَيَتِمُّ التَّشَاوُرُ، وَيَحْصُلُ تَبَادُلُ الْأَرَءَاءِ، وَذَلِكَ بِالنُّهُوضِ بِالْأُمَّةِ، وَرَفْعِ مَكَانَتِهَا الْقِيَادِيَّةِ بَيْنَ الْأُمَمِ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «الْجَوْهَرَةُ الْفَرِيدَةُ: شَرْحُ رُكْنِ الْحَجِّ» (مُحَاضَرَةٌ: ٢٥)، الْخَمِيسُ ٦ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ | ٨-٩-٢٠١٦م.

أَحْكَامُ الْحَجِّ وَفَوَائِدُهُ وَأَرْكَانُهُ

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيَّنَّتْ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ، كَانَ أَمْنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «يُخْبِرُ -تَعَالَى- بِعِظَمَةِ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ الْبُيُوتِ الَّتِي وَضَعَهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ لِعِبَادَتِهِ وَإِقَامَةِ ذِكْرِهِ، وَأَنَّ فِيهِ مِنَ الْبَرَكَاتِ، وَأَنْوَاعِ الْهَدَايَاتِ، وَتَنَوُّعِ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ لِلْعَالَمِينَ شَيْئًا كَثِيرًا وَفَضْلًا غَزِيرًا، وَأَنَّ فِيهِ آيَاتٍ بَيَّنَّتْ تُذَكِّرُ بِمَقَامَاتِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَتَنْقُلَاتِهِ فِي الْحَجِّ، وَمِنْ بَعْدِهِ تُذَكِّرُ بِمَقَامَاتِ سَيِّدِ الرُّسُلِ وَإِمَامِهِمْ، وَفِيهِ الْأَمْنُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ أَمْنًا قَدَرًا، مُؤَمَّنًا شَرْعًا وَدِينًا.

فَلَمَّا احْتَوَى عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هَذِهِ مُجْمَلَاتُهَا وَتَكَثَّرَ تَفْصِيلَاتُهَا؛ أَوْجَبَ اللَّهُ حُجَّهَ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ الْمُسْتَطِيعِينَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَهُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ بِأَيِّ مَرْكُوبٍ يُنَاسِبُهُ وَزَادَ يَتَزَوَّدُهُ؛ وَلِهَذَا أَتَى بِهَذَا اللَّفْظِ الَّذِي

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٤٦).

يُمْكِنُ تَطْبِيقُهُ عَلَى جَمِيعِ الْمَرْكُوبَاتِ الْحَادِثَةِ وَالَّتِي سَتَحْدُثُ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ؛ حَيْثُ كَانَتْ أَحْكَامُهُ صَالِحَةً لِكُلِّ زَمَانٍ وَكُلِّ حَالٍ، وَلَا يُمْكِنُ الصَّلَاحُ التَّامُّ بِدُونِهَا، فَمَنْ أَدْعَنَ لِدَلِكِ وَقَامَ بِهِ فَهُوَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ كَفَرَ فَلَمْ يَلْتَزِمِ حُجَّ بَيْتِهِ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الدِّينِ، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) ﴿١٧﴾.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ

الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [آل عمران: ٩٧].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاتِمُوا الْحُجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] الْآيَةَ.

وَفِيهَا فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ: أَنَّ الْحُجَّ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَمَبَانِيهِ، وَأَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَهُ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، ثُمَّ خَصَّ الْمُسْتَطِيعِينَ إِلَيْهِ السَّبِيلَ، وَهَذَا الشَّرْطُ الْأَعْظَمُ لَوْجُوبِ الْحُجَّ، فَمَنْ تَمَّتِ اسْتَطَاعَتُهُ فِي بَدَنِهِ وَمَالِهِ، وَلَمْ يَمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ خَوْفٌ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْحُجَّ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ الْمُطْلَقَ يَقْتَضِي الْقَوْرَ، وَمَنْ عَجَزَ فِي بَدَنِهِ، وَقَدَّرَ فِي مَالِهِ، وَهُوَ يَرْجُو زَوَالَ هَذَا الْعَجْزِ؛ صَبَرَ إِلَى زَوَالِ عَجْزِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا يَرْجُو زَوَالَهُ، أَوْ كَانَ كَبِيرًا لَا يَقْدِرُ عَلَى الثُّبُوتِ عَلَى الْمَرْكُوبِ؛ اسْتَنَابَ عَنْهُ مَنْ يَحُجُّ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ مَاتَ بَعْدَمَا وَجَبَ عَلَيْهِ الْحُجَّ؛ وَجَبَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ الْإِسْتِنَابَةُ عَنْهُ.

وَالْإِسْتَطَاعَةُ: هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى ثَمَنِ الرَّاحِلَةِ، أَوْ أُجْرَتِهَا، أَوْ أُجْرَةِ الْمَرَائِبِ الْبَرِّيَّةِ أَوْ الْبَحْرِيَّةِ أَوْ الْجَوِيَّةِ ذَهَابًا وَرُجُوعًا؛ وَلِهَذَا أَطْلَقَ اللَّهُ اسْتَطَاعَةَ السَّبِيلِ؛ لِيَشْمَلَ مَا حَدَثَ وَيَحْدُثُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَبَرَاهِينِ صِدْقِهِ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِإِتِمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ لِلَّهِ، وَهَذَا شَامِلٌ لِلْفَرْضِ مِنْهُمَا وَلِلنَّفْلِ، فَمَنْ فَرَضَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ بِأَنْ أَوْجَبَهُمَا عَلَى نَفْسِهِ بِدُخُولِهِ فِي النُّسُكِ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ الْإِتِمَامُ إِلَّا أَنْ يَحْصُلَ لَهُ حَضَرٌ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ بَعْدُ أَوْ غَيْرِهِ، فَيَذْبُحُ هَدْيَهُ، وَيَخْلِقُ رَأْسَهُ، وَيُحِلُّ مِنْ نُسُكِهِ، وَمَنْ سَاقَ الْهَدْيَ قَرْنَ بَيْنَ النُّسُكَيْنِ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَحِلَّ لَهُ أَنْ يَخْلِقَ رَأْسَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ يَوْمَ النَّحْرِ، فَيَحِلُّ مِنَ النُّسُكَيْنِ جَمِيعًا.

وَفِيهَا: دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ سَوْقِ الْهَدْيِ مِنَ الْحِلِّ، وَتُؤْخَذُ مَشْرُوعِيَّةُ تَقْلِيدِ الْهَدْيِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْهَدَى وَالْقَلْتَيْدَ﴾، وَأَنَّ الْعُمْرَةَ تَنْدَرِجُ فِي الْحَجِّ، وَتَكُونُ أَفْعَالُهُمَا جَمِيعًا، وَالْحِلُّ مِنْهُمَا جَمِيعًا.

وَأَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْمُتَمَتِّعِ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ، وَهُوَ مَا يُجْزَى فِي الْأُضْحِيَّةِ؛ جَذْعُ الضَّأْنِ، وَثْنِي الْمَعْزِ، وَسَبْعُ الْبَدَنَةِ، أَوْ سَبْعُ الْبَقَرَةِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ، لَا يَتَجَاوَزُ بِهَا أَيَّامَ التَّشْرِيقِ، وَقَدْ أَبَاحَ الشَّارِعُ صِيَامَهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ فَقَطْ، وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعَ، وَإِنَّمَا يَجِبُ الدَّمُ أَوْ بَدْلُهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي وُجُوبِ الْهَدْيِ أَوْ بَدْلِهِ الشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ حُصُولِ النُّسُكَيْنِ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ، وَمَنْ كَانَ أَهْلُهُ فِي مَكَّةَ أَوْ قُرْبَهَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَمَنْهُمُ الْآيَةُ: أَنَّ الْمُفْرَدَ لِلْحَجِّ لَيْسَ عَلَيْهِ هَدْيٌ، وَأَمَّا الْقَارِنُ فَإِنَّهُ دَاخِلٌ فِي الْمُتَمَتِّعِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ إِحْرَامُ النُّسُكَيْنِ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَهِيَ: شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ.

وَأَرْشَدَ اللَّهُ مَنْ فَرَضَ فِيهَا - أَيْ: أَوْجَبَ فِيهِنَّ الْحَجَّ - أَلَّا يَرُفُثَ - وَالرَّفُثُ: الْوُطْءُ وَمُقَدَّمَاتُهُ؛ لِأَنَّ الْوُطْءَ مُفْسِدٌ لِلنُّسْكِ، وَمُقَدَّمَاتِهِ مُنْقِصَةٌ لَهُ، وَأَلَّا يَفْسُقَ، وَيَشْمَلَ ذَلِكَ جَمِيعَ الْمَعَاصِي، وَأَمَّا الْجِدَالُ فَهُوَ الْمُخَاصَمَةُ وَالْمُنَازَعَةُ وَكَثْرَةُ الْجِدَالِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ تَشْغُلُ الْعَبْدَ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ مِنَ النُّسْكِ.

وَلَمَّا نَهَى عَمَّا يُنَافِي النُّسْكَ وَيُنْقِصُهُ؛ أَمَرَ وَحَثَّ عَلَى كُلِّ مَا يُكْمِلُهُ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا، فَقَالَ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وَحَثَّ - أَيْضًا - عَلَى كَثْرَةِ الزَّادِ؛ لِأَنَّهُ يَكْفُ الْإِنْسَانَ وَيُعِينُهُ عَنِ الْخَلْقِ، وَيَبْسِطُ بِهِ نَفْسَهُ وَرُفْقَتَهُ، وَيَتِمَّكَّنُ مِنْ فِعْلِ الْإِحْسَانِ.

وَأَبَاحَ - تَعَالَى - لِلْحَاجِّ وَالْمُعْتَمِرِ الْإِشْتِغَالَ بِالتَّجَارَةِ وَالْمَكَاسِبِ بِشَرَطِ أَلَّا تَشْغَلَهُ عَنِ تَكْمِيلِ نُسْكَهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

فِي هَذَا: أَنَّ الْوُقُوفَ بِعَرَفَةَ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الْحَجِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَاطَبَ بِهِ جَمِيعَ الْحَاجِّ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيضُوا مِنْهَا، وَهَذَا أَحَدُ أَرْكَانِ الْحَجِّ الْأَرْبَعَةِ؛ وَهِيَ:

- الْإِحْرَامُ: الَّذِي هُوَ نِيَّةُ الدُّخُولِ فِي النُّسْكِ، الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ فَرَضَ

فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

- وَالْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ.

- وَالطَّوَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لَشَرَفِهِ، وَأَنَّهُ أَعْظَمُ أَرْكَانِ الْحَجِّ، وَلِأَنَّهُ تُشْتَرِطُ لَهُ الطَّهَارَةُ دُونَ بَقِيَّةِ الْمَنَاسِكِ، وَلِأَنَّهُ يُتَطَوَّعُ بِهِ كُلَّ وَقْتٍ.

- وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، مَعَ حَثِّ اللَّهِ عَلَى تَعْظِيمِ شَعَائِرِ الدِّينِ.

فَهَذِهِ أَرْكَانُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ إِلَّا أَنَّ الْعُمْرَةَ الْمُفْرَدَةَ لَا وَقُوفَ فِيهَا بِعَرَفَةَ وَتَوَابِعَهَا.

وَفِي الْآيَةِ: الْأَمْرُ بِذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ؛ وَهُوَ (مُزْدَلِفَةُ)، الْوَاجِبُ مِنْهُ أَنْ يُدْرِكَ جُزْءًا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ -أَي: مِنَ النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ لَيْلَةِ النَّحْرِ، وَالْأَكْمَلُ الْمَبِيتُ بِهَا، وَبَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ يَقِفُ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَيَهْلُلُ اللَّهَ، وَيَحْمَدُهُ، وَيَسْتَغْفِرُهُ حَتَّى يُقَارِبَ طُلُوعَ الشَّمْسِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]: يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الرَّمْيُ، وَالنَّحْرُ، وَالْحَلْقُ، وَطَوَافُ الْإِفَاضَةِ، وَالسَّعْيُ، وَالْمَبِيتُ بِ(مِنَى) لِيَالِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، كَمَا عُرِفَ ذَلِكَ مِنْ هَدْيِ الرَّسُولِ ﷺ وَقَوْلِهِ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»: ٩٤٣/٢، رَقْمَ (١٢٩٧)، مِنْ حَدِيثِ: جَابِرٍ، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ».

وَفِي رِوَايَةِ اللَّيْهَقِيِّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى»: ١٢٥ / ٥، بِلَفْظٍ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ،...»

كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] يَشْمَلُ جَمِيعَ مَا شَرَعَ فِي الْحَجِّ مِنَ الْأَرْكَانِ، وَالْوَاجِبَاتِ، وَالسُّنَنِ.

ثُمَّ أَمَرَ -تعالى- بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ عِنْدَ كَمَالِ النَّسْكِ خَتَمًا لِهَذَا النَّسْكِ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَشُكْرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى تَكْمِيلِهِ.

وَأَمَرَ بِذِكْرِهِ فِي الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ؛ وَهِيَ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، وَأَبَاحَ التَّعَجُّلَ فِي يَوْمَيْنِ بَأَن يَرْمِي ثَانِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ الْجَمَرَاتِ الثَّلَاثَ، ثُمَّ يَنْفِرُ مِنْ (مِنَى) قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَإِنْ غَرَبَتْ وَهُوَ فِي (مِنَى) تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْمَبِيتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَالرَّمْيُ لِلْجَمَرَاتِ الثَّلَاثِ مِنَ الْغَدِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]: فِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ رَكَعَتَي الطَّوَافِ، وَأَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَكُونَ خَلْفَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ^(١). (*)

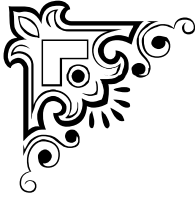


الحديث.

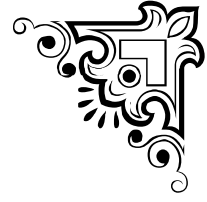
(١) «فتح الرحيم الملك العلام» (ص: ١٣٢-١٣٥) للعلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «مِنْ دُرُوسِ الْحَجِّ» - الْجُمُعَةُ ٢٤ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٥ هـ|

١٩-٩-٢٠١٤م.



طَرَفٌ مِنْ سِيرَةِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ وَمَوَاضِعُ الْمُنَاسِكِ



«قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَخْبَارًا كَثِيرَةً مِنْ سِيرَةِ إِبْرَاهِيمَ، فِيهَا لَنَا الْأُسُوءَةُ بِالْأَنْبِيَاءِ عُمُومًا، وَبِهِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّنَا وَأَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِ، وَهِيَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عَقَائِدَ وَأَخْلَاقٍ وَأَعْمَالٍ قَاصِرَةٍ وَمُتَعَدِّيَةٍ؛ فَقَدْ آتَاهُ اللَّهُ -تَعَالَى- رُشْدَهُ، وَعَلَّمَهُ الْحِكْمَةَ مُنْذُ كَانَ صَغِيرًا، وَأَرَاهُ مَلَكَوَتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ يَقِينًا وَعِلْمًا، وَقُوَّةً فِي دِينِ اللَّهِ، وَرَحْمَةً بِالْعِبَادِ.

وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمٍ مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، وَهُمْ فَلَاسِفَةُ الصَّابِئَةِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَخْبَثِ الطَّوَائِفِ وَأَعْظَمِهِمْ ضَرَرًا عَلَى الْخَلْقِ، فَدَعَاهُمْ بِطُرُقِ شَتَّى، فَأَوَّلَ ذَلِكَ دَعَاهُمْ بِطَرِيقَةٍ لَا يُمْكِنُ لِصَاحِبِ عَقْلٍ أَنْ يَنْفِرَ مِنْهَا، وَلَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ السَّبْعَ السَّيَّارَاتِ الَّتِي مِنْهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَقَدْ بَنَوْا لَهَا الْبُيُوتَ، وَسَمَّوْهَا الْهَيْكَلِ؛ قَالَ لَهُمْ نَاطِرًا وَمُنَاطِرًا: هَلُمُّ يَا قَوْمُ! نَنْظُرُ هَلْ يَسْتَحِقُّ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا لِهَيْئَةٍ وَالرُّبُوبِيَّةِ؟

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ إِلِيلٌ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

وَالْمَنَاظَرَةُ تُخَالِفُ غَيْرَهَا فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ:

مِنْهَا: أَنَّ الْمَنَاظِرَ يَقُولُ الشَّيْءَ الَّذِي لَا يَعْتَقِدُهُ لِيَنبِي عَلَيْهِ حُجَّتَهُ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَى خَصْمِهِ، كَمَا قَالَ فِي تَكْسِيرِهِ الْأَصْنَامَ لَمَّا قَالُوا لَهُ: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلَيْتَنَا يَتَا بَرَهَيْمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فَأَشَارَ إِلَى الصَّنَمِ الَّذِي لَمْ يُكْسِرْهُ، فَقَالَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ غَرَضَهُ إِزْمَامُهُمْ بِالْحُجَّةِ، وَقَدْ حَصَلَتْ.

فَهُنَا يَسْهَلُ عَلَيْنَا فَهْمُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] أَي: إِنَّ كَانَ يَسْتَحِقُّ الْإِلَهِيَّةَ بَعْدَ النَّظَرِ فِي حَالَتِهِ وَوَصْفِهِ فَهُوَ رَبِّي، مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ؛ وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُلْزِمَهُمُ الْحُجَّةَ.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦] أَي: غَابَ ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ إِلَّا فِلَيْتَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

فَإِنَّ مَنْ كَانَ لَهُ حَالٌ وَجُودٍ وَعَدَمٌ، أَوْ حَالٌ حُضُورٍ وَغَيْبَةٍ قَدْ عَلِمَ كُلُّ عَاقِلٍ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَامِلٍ؛ فَلَا يَكُونُ إِلَهًا.

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْقَمَرِ، فَلَمَّا رَأَاهُ بَارِغًا: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

يُرِيهِمْ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وَقَدْ صَوَّرَ نَفْسَهُ بِصُورَةِ الْمُوَافِقِ لَهُمْ؛ لَكِنْ لَا عَلَى وَجْهِ التَّقْلِيدِ، بَلْ يَقْصِدُ إِقَامَةَ الْبُرْهَانِ عَلَى إِلَهِيَّةِ النُّجُومِ وَالْقَمَرِ، فَالآنَ وَقَدْ أَفَلَتْ، وَبَيَّنَ بِالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ مَعَ السَّمْعِيِّ بُطْلَانَ إِلَهِيَّتِهَا؛ فَأَنَّا إِلَى الْآنَ لَمْ يَسْتَقِرَّ لِي قَرَارٌ عَلَى رَبٍّ وَإِلَهٍ عَظِيمٍ.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ: هَذَا أَكْبَرُ مِنَ النُّجُومِ وَأَكْبَرُ مِنَ الْقَمَرِ، فَإِنْ جَرَى عَلَيْهَا مَا جَرَى عَلَيْهِمَا كَانَتْ مِثْلَهُمَا، فَلَمَّا أَفَلَتْ وَقَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ الْجَمِيعِ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ عِبَادَةَ مَنْ يَأْفُلُ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ؛ فَحِيَتِّدُ الزَّمَهُمْ بِهَذَا الْإِلْزَامِ، وَوَجَّهَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ فَقَالَ: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِلَيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ۖ﴾ (٧٨) ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩) [الأنعام: ٧٨ - ٧٩] أَي: ظَاهِرِي وَبَاطِنِي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩) [الأنعام: ٧٩].

فَهَذَا بُرْهَانٌ عَقْلِيٌّ وَاضِحٌ أَنَّ الْخَالِقَ لِلْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ هُوَ الَّذِي يَتَعَيَّنُ أَنْ يُقْصَدَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَفْلَاقَ وَالْكَوَاكِبَ وَغَيْرَهَا مَخْلُوقَاتٌ مُدْبَّرَاتٌ لَيْسَ لَهَا مِنَ الْأَوْصَافِ مَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ لِأَجْلِهَا؛ فَجَعَلُوا يُخَوِّفُونَهُ آلِهَتَهُمْ أَنْ تَمْسَهُ بِسُوءٍ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْآرَاءِ الرَّدِيئَةِ مَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُ مَنْ عَبَدَهَا، وَتَضُرُّ مَنْ تَرَكَهَا أَوْ قَدَحَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ مُبَيِّنًا لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَوْفِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ الْحَقِيقِيُّ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ ﷺ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) [الأنعام: ٨١].

أَجَابَ اللَّهُ هَذَا الْاسْتِفْهَامَ جَوَابًا يَعُمُّ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَغَيْرَهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أَي: بِشِرْكٍ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام: ٨٢].

فَرَفَعَ اللَّهُ خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ بِالْعِلْمِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَعَجَزُوا عَنْ نَصْرِ بَاطِلِهِمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ صَمَّمُوا عَلَى الْإِقَامَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِمُ الْوَعْدُ وَالتَّذْكِيرُ وَإِقَامَةُ الْحُجَجِ، فَلَمْ يَزَلْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ نَهْيًا عَامًّا وَخَاصًّا، وَأَخْصَصَ مَنْ دَعَاهُ أَبُوهُ آزَرُ؛ فَإِنَّهُ دَعَاهُ بِعِدَّةِ طُرُقٍ نَافِعَةٍ؛ وَلَكِنْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

فَمِنْ جُمْلَةِ مَقَالَاتِهِ لِأَبِيهِ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۝٤٢ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٣].

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَذَا الْخِطَابِ الْجَادِبِ لِلْقُلُوبِ: لَمْ يَقُلْ لِأَبِيهِ: إِنَّكَ جَاهِلٌ؛ لِيَتْلَا يَنْفَرُ مِنَ الْكَلَامِ الْخَشِنِ، بَلْ قَالَ لَهُ هَذَا الْقَوْلُ: ﴿يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم: ٤٣ - ٤٥].

فَانْتَقَلَ بِدَعْوَتِهِ مِنْ أَسْلُوبٍ لِآخَرٍ؛ لَعَلَّهُ يَنْجَعُ فِيهِ أَوْ يُفِيدُ؛ وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ قَالَ لَهُ أَبُوهُ: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرَهُمْ لِيْن لَمْ تَنْتَه لَأَرْحَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: ٤٦].

هَذَا وَإِبْرَاهِيمُ لَمْ يَغْضَبْ، وَلَمْ يُقَابِلْ أَبَاهُ بِبَعْضِ مَا قَالَ، بَلْ قَابَلَ هَذِهِ الْإِسَاءَةَ الْكُبْرَى بِالْإِحْسَانِ فَقَالَ: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ ۝٤٧﴾ [مريم: ٤٧]: لَا أَتَكَلَّمُ مَعَكَ

إِلَّا بِكَلَامٍ طَيِّبٍ لَا غِلْظَةَ فِيهِ وَلَا خُسُوفَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَسْتُ بِأَيْسٍ مِنْ هِدَايَتِكَ: ﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [٤٧] ﴿مريم: ٤٧﴾ أَي: بَرًّا رَحِيمًا قَدْ عَوَّدَنِي لُطْفَهُ، وَأَجْرَانِي عَلَى عَوَائِدِهِ الْجَمِيلَةِ، وَلَمْ يَزَلْ لِدُعَائِي مُجِيبًا.

فَلَمْ يَزَلْ إِبْرَاهِيمُ مَعَ قَوْمِهِ فِي دَعْوَةٍ وَجْدَالٍ، وَقَدْ أَفْحَمَهُمْ، وَكَسَرَ جَمِيعَ حُجَجِهِمْ وَشُبُهَاتِهِمْ، فَأَرَادَ ﷺ أَنْ يُقَاوِمَهُمْ بِأَعْظَمِ الْحُجَجِ، وَأَنْ يَصُمِدَ لِبَطْشِهِمْ وَجَبْرُوتِهِمْ، وَقُدْرَتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا وَجِلٍ، فَلَمَّا خَرَجُوا ذَاتَ يَوْمٍ لِعِيدٍ مِنْ أَعْيَادِهِمْ وَخَرَجَ مَعَهُمْ؛ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ﴾ [٨٨] ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]؛ لِأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ تَخْلَفَ لِعِيرِ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ لَمْ يُدْرِكْ مَطْلُوبَهُ؛ لِأَنَّهُ تَظَاهَرَ بِعَدَاوَةِ الْأَصْنَامِ، وَالنَّهْيِ الْأَكِيدِ عَنْهَا، وَجَهَادِ أَهْلِهَا، فَلَمَّا بَرَزُوا جَمِيعًا إِلَى الصَّحَرَاءِ كَرَّ رَاجِعًا إِلَى بَيْتِ أَصْنَامِهِمْ، فَجَعَلَهَا جُذَاذَا كُلَّهَا إِلَّا صَنَمًا كَبِيرًا أَبْقَى عَلَيْهِ لِيُزَيِّرَ لَهُمُ الْحُجَّةَ.

فَلَمَّا رَجَعُوا مِنْ عِيدِهِمْ بَادَرُوا إِلَى أَصْنَامِهِمْ صَبَابَةً وَمَحَبَّةً، فَرَأَوْا فِيهَا أَفْطَحَ مَنْظَرٍ رَأَاهُ أَهْلُهَا، فَقَالُوا: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٩] ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦٠] أَي: يَعِيبُ الْأَصْنَامَ وَيَذْكُرُهَا بِأَوْصَافِ النِّقْصِ وَالسُّوءِ ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

فَلَمَّا تَحَقَّقُوا أَنَّهُ قَدْ كَسَرَهَا ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَتَمِّ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] ﴿٦١﴾ أَي: بِحَضْرَةِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، وَوَبَّخُوهُ أَشَدَّ التَّوْبِيخِ، ثُمَّ نَكَلُوا بِهِ، وَهَذَا الَّذِي أَرَادَ إِبْرَاهِيمُ؛ لِيُظْهِرَ الْحَقَّ بِمَرَأَى الْخَلْقِ وَمَسْمَعِهِمْ.

فَلَمَّا جُمِعَ النَّاسُ وَحَضَرُوا، وَأَحْضَرُوا إِبْرَاهِيمَ قَالُوا: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٣] مُشِيرًا إِلَى الصَّنَمِ الَّذِي سَلِمَ مِنْ تَكْسِيرِهِ.

وَهُمْ فِي هَذِهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَعْتَرِفُوا بِالْحَقِّ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَدْخُلُ عَقْلَ أَحَدٍ؛ أَنْ جَمَادًا مَعْرُوفًا أَنَّهُ مَصْنُوعٌ مِنْ مَوَادٍّ مَعْرُوفَةٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا الْفِعْلَ، وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا: نَعَمْ، هَذَا الصَّنَمُ هُوَ الَّذِي فَعَلَهَا، وَأَنْتَ سَالِمٌ نَاجٍ مِنْ تَبِعَتِهَا، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ الْإِحْتِمَالَ الْآخِيرَ، قَالَ: ﴿فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٦٣) [الأنبياء: ٦٣].

وَهَذَا تَعْلِيقٌ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ مُحَالٌ؛ فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ الْحَقُّ وَبَانَ، وَاعْتَرَفُوا هُمْ بِالْحَقِّ، ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٥] أَيُّ: مَا كَانَ اعْتَرَفْتُهُمْ بِبُطْلَانِ إِلَهِيَّتِهَا إِلَّا وَقْتًا قَصِيرًا ظَهَرَتِ الْحُجَّةُ مُبَاشَرَةً؛ بِحَيْثُ لَا يُمَكِّنُ مُكَابَرَتِهَا؛ وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا عَادَتْ عَلَيْهِمْ عَقَائِدُهُمُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي رَسَخَتْ فِي قُلُوبِهِمْ وَاسْتَقَرَّتْ، وَصَارَتْ صِفَاتٍ مُلَازِمَةً، إِنْ وُجِدَ مَا يُنَافِيهَا فَإِنَّهُ عَارِضٌ يَعْزِضُ ثُمَّ يَزُولُ بَعْدُ، ﴿ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (٦٥) [الأنبياء: ٦٥].

فَحِينَئِذٍ وَبَّخَهُمْ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَهِيَ الْحُجَّةُ الَّتِي اعْتَرَفَ بِهَا الْخُصُومُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

فَلَوْ كَانَتْ لَكُمْ عُقُولٌ صَحِيحَةٌ لَمْ تُقِيمُوا عَلَى عِبَادَةِ مَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ،
وَلَا يَنْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ مَنْ يُرِيدُهُ بِسُوءٍ، فَلَمَّا أَعْيَتْهُمْ الْمُقَاوَمَةُ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ؛
عَدَلُوا وَمَالُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ، وَاسْتِعْمَالِ جَبْرُوتِهِمْ فِي عُقُوبَةِ
إِبْرَاهِيمَ، فَقَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [الأنبياء: ٦٨]،
فَأَوْقَدُوا نَارًا عَظِيمَةً جَدًّا، فَالْقَوْهُ بِهَا، فَقَالَ - وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالِ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ
ﷺ - قَالَ: «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لِلنَّارِ: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا
وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فَلَمْ تَضُرَّهُ بِشَيْءٍ، ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ [الأنبياء: ٧٠]؛ لِيَنْصُرُوا آلِهَتَهُمْ، وَيُقِيمُوا
لَهَا فِي قُلُوبِهِمْ وَقُلُوبِ أَتْبَاعِهِمُ الْخُضُوعَ وَالتَّعْظِيمَ، فَكَانَ مَكْرُهُمْ وَبَالًا عَلَيْهِمْ،
وَكَانَ انْتِصَارُهُمْ لِآلِهَتِهِمْ نَصْرًا عَظِيمًا عِنْدَ الْحَاضِرِينَ وَالْغَائِبِينَ، وَالْمَوْجُودِينَ
وَالْحَادِثِينَ عَلَيْهِمْ، وَانْتَصَرَ الْخَلِيلُ عَلَى الْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ، وَالرُّؤَسَاءِ
وَالْمَرْوُوسِينَ؛ حَتَّى إِنَّ مَلِكَهُمْ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ بَغْيًا وَطُغْيَانًا ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿رَبِّیَ الَّذِیْ یُحِیْءُ وَیُمِیتُ قَالَ أَنَا
أُحِیْءُ وَأُمِیتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فَالزَّمَهُ الْخَلِيلُ بِطَرْدِ دَلِيلِهِ بِالتَّصَرُّفِ الْمُطْلَقِ فَقَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ
مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٥٩﴾
[البقرة: ٢٥٨].

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ مُهَاجِرًا وَزَوْجَتُهُ وَابْنُ أَخِيهِ لُوطٌ، فَخَرَجُوا
مُهَاجِرِينَ إِلَى الدِّيَارِ الشَّامِيَّةِ، وَفِي أَثْنَاءِ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ بِالشَّامِ ذَهَبَ إِلَى مِصْرَ بَزَوْجَتِهِ

سَارَةً، وَكَانَتْ أَحْسَنَ امْرَأَةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَلَمَّا رَأَاهَا مَلِكُ مِصْرَ -وَكَانَ جَبَّارًا عَنِيدًا-؛ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ حِينَ رَأَاهَا حَتَّى أَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا، فَدَعَتْ اللَّهَ عَلَيْهِ، فَكَادَ أَنْ يَمُوتَ، ثُمَّ أُطْلِقَ، ثُمَّ عَادَ ثَانِيَةً، وَكُلَّمَا أَرَادَهَا دَعَتْ عَلَيْهِ فَصُرعَ، ثُمَّ دَعَتْ لَهُ فَأُطْلِقَ، فَكَفَاهُمَا اللَّهُ شَرَّهُ، وَوَهَبَ لَهَا هَاجِرَ؛ جَارِيَةً قِبْطِيَّةً، وَكَانَتْ سَارَةً عَاقِرًا مُنْذُ كَانَتْ شَابَّةً، فَوَهَبَتْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ لِإِبْرَاهِيمَ لِيَتَسَرَّرَ بِهَا؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ مِنْهَا وَلَدًا، فَاتَتْ هَاجِرُ بِإِسْمَاعِيلَ عَلَى كِبَرِ سِنِّ إِبْرَاهِيمَ، فَفَرِحَ بِهِ فَرَحًا شَدِيدًا؛ وَلَكِنَّ سَارَةَ أَدْرَكَتْهَا الْغَيْرَةُ فَحَلَفَتْ أَلَّا يُسَاكِنَهَا بِهَا؛ وَذَلِكَ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا.

وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ لِدَهَابِهِ بِهَا إِلَى مَوْضِعِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ؛ وَإِلَّا فَهُوَ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُ ذَلِكَ عليه السلام، فَذَهَبَ بِهَا وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلَ إِلَى مَكَّةَ، وَهِيَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ، وَلَا مَسْكَنٌ، وَلَا مَاءٌ، وَلَا زَرْعٌ، وَلَا غَيْرُهُ، وَزَوَّدَهُمَا بِسِقَاءٍ فِيهِ مَاءٌ، وَجَرَابٍ فِيهِ تَمْرٌ، وَوَضَعَهُمَا عِنْدَ دَوْحَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ مَحَلِّ بَثْرِ زَمْزَمَ، ثُمَّ قَفَى عَنْهُمَا، فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّنِيَّةِ بِحَيْثُ يُشْرِفُ عَلَيْهِمَا؛ دَعَا اللَّهَ -تَعَالَى- فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧) [إبراهيم: ٣٧] إِلَى آخِرِ الدُّعَاءِ.

ثُمَّ اسْتَسَلِمَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَجَعَلَتْ تَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى نَفِدَا، فَعَطِشَتْ ثُمَّ عَطِشَ وَلَدُهَا، فَجَعَلَ يَتَلَوَّى مِنَ الْعَطَشِ، ثُمَّ ذَهَبَتْ فِي تِلْكَ الْحَالِ لَعَلَّهَا تَرَى أَحَدًا أَوْ تَجِدُ مُعِيثًا، فَصَعِدَتْ أَدْنَى جَبَلٍ مِنْهَا وَهُوَ الصَّفَا، وَتَطَلَّعَتْ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى الْمَرْوَةِ فَصَعِدَتْ عَلَيْهِ، فَتَطَلَّعَتْ فَلَمْ

تَرَ أَحَدًا، ثُمَّ جَعَلَتْ تَتَرَدَّدُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَهِيَ مَكْرُوبَةٌ مُضْطَرَّةٌ، مُسْتَغِيثَةٌ بِاللَّهِ لَهَا وَلِابْنَيْهَا، وَهِيَ تَمْشِي وَتَتَلَفَّتْ إِلَيْهِ خَشْيَةَ السَّبَاعِ عَلَيْهِ، فَإِذَا هَبَطَتِ الْوَادِي سَعَتْ حَتَّى تَصْعَدَ مِنْ جَانِبِهِ الْآخَرِ؛ لِئَلَّا يَخْفَى عَلَى بَصَرِهَا ابْنُهَا.

وَالْفَرَجُ مَعَ الْكَرْبِ، وَالْعُسْرُ يَتْبَعُهُ الْيُسْرُ، فَلَمَّا أَتَمَّتْ سَبْعَ مَرَّاتٍ تَسَمَّعَتْ حِسَّ الْمَلِكِ، فَبَحَثَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ زَمَزَمَ فَنَبَعَ الْمَاءُ، فَاشْتَدَّ فَرَحُ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ بِهِ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، وَحَمَدَتِ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْكُبْرَى، وَحَوَّطَتْ عَلَى الْمَاءِ لِئَلَّا يَسِيحَ فِي الْأَرْضِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ! لَوْ تَرَكْتَ مَاءَ زَمَزَمَ -أَي: لَمْ تَحْطُطْهُ- لَكَانَتْ زَمَزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» (١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

ثُمَّ عَثَرَ بِهَا قَبِيلَةٌ مِنَ الْعَرَبِ يُقَالُ لَهُمْ (جُرْهُمُ)، فَنَزَلُوا عِنْدَهَا، وَتَمَّتْ عَلَيْهَا النِّعْمَةُ.

وَشَبَّ إِسْمَاعِيلُ شَبَابًا حَسَنًا، وَأَعْجَبَ الْقَبِيلَةَ بِأَخْلَاقِهِ وَعُلُوِّ هِمَّتِهِ وَكَمَالِهِ، فَلَمَّا بَلَغَ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ امْرَأَةً.

فَفِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الْمُدَّةِ مَاتَتْ أُمُّهُ ﷺ، وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بِغَيَّةٍ إِسْمَاعِيلَ يَتَصِيدُ، فَدَخَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْ زَوْجِهَا وَعَنْ عَيْشِهِمْ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّ زَوْجَهَا قَدْ ذَهَبَ يَتَصِيدُ، وَأَنَّ عَيْشَهُمْ عَيْشُ الشَّدَّةِ، فَقَالَ لَهَا: «إِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرِئِهِ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُعِيرُ عَتَبَةَ بَابِهِ».

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٦٤).

وَرَجَعَ مِنْ فَوْرِهِ لِحِكْمَةِ أَرَادَهَا اللَّهُ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ أَنَسَ شَيْئًا، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ جَاءَهُمْ شَيْخٌ بِهَذَا الْوَصْفِ، وَأَنَّهُ سَأَلَ عَنْكَ فَأَخْبَرْتَهُ، وَسَأَلْنَا عَنْ عَيْشِنَا فَأَخْبَرْتَهُ أَنَّنَا فِي شِدَّةٍ، وَأَنَّهُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: غَيْرَ عَتَبَةٍ بِابِكَ، فَقَالَ: «ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ».

ثُمَّ تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ غَيْرَهَا، ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ مَرَّةً أُخْرَى وَإِسْمَاعِيلُ -أَيْضًا- فِي الصَّيْدِ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْ إِسْمَاعِيلِ فَأَخْبَرَتْهُ، وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُمْ فِي نِعْمَةٍ وَخَيْرٍ، وَكَانَتْ امْرَأَةً طَيِّبَةً شَاكِرَةً لِلَّهِ، شَاكِرَةً لِرِزْقِهَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا: «إِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُثَبَّتْ عَتَبَةُ بَابِهِ»، ثُمَّ رَجَعَ -أَيْضًا- مِنْ فَوْرِهِ قَبْلَ مُوَاجَهَةِ إِسْمَاعِيلِ؛ لِحِكْمَةِ أَرَادَهَا اللَّهُ -تَعَالَى-.

فَلَمَّا رَجَعَ إِسْمَاعِيلُ مِنْ صَيْدِهِ قَالَ: «هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟».

فَقَالَتْ: «جَاءَنَا شَيْخٌ بِهَذَا الْوَصْفِ».

فَقَالَ: «هَلْ قَالَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟».

فَقَالَتْ: «سَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتَهُ، وَسَأَلْنَا عَنْ عَيْشِنَا فَأَخْبَرْتَهُ أَنَّنَا فِي نِعْمَةٍ، وَأَثْنَيْتُ عَلَى اللَّهِ».

قَالَ: «فَمَا قَالَ؟».

قَالَتْ: «هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبَّتَ عَتَبَةُ بَابِكَ».

فَقَالَ: «ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ».

ثُمَّ عَادَ إِبْرَاهِيمُ الْمَرَّةَ الثَّالِثَةَ فَوَجَدَ إِسْمَاعِيلَ يَبْرِي نَبْلًا عِنْدَ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ الشَّفِيقُ وَالْوَلَدُ الشَّفِيقُ، فَقَالَ: «يَا إِسْمَاعِيلُ! إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا يَكُونُ مَسْجِدًا لِلْخَلْقِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

قَالَ: «سَأَعِينُكَ عَلَى ذَلِكَ».

فَجَعَلَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾

[البقرة: ١٢٧ - ١٢٩] (١).

فَلَمَّا تَمَّ بُنْيَانُهُ، وَتَمَّ لِلْخَلِيلِ هَذَا الْأَثَرُ الْجَلِيلُ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَدْعُو النَّاسَ وَيُؤَذِّنَ فِيهِمْ بِحَجِّ هَذَا الْبَيْتِ، فَجَعَلَ يَدْعُو النَّاسَ وَهُمْ يَفْدُونَ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ؛ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ، وَيَسْعُدُوا وَيُزُولَ عَنْهُمْ شَقَاهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ حِينَ تَمَكَّنَ حُبُّ إِسْمَاعِيلَ مِنْ قَلْبِهِ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَمْتَحِنَ إِبْرَاهِيمَ لِتَقْدِيمِ مَحَبَّةِ رَبِّهِ وَخُلَّتِهِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْمُشَارَكَةَ وَلَا الْمُرَاحِمَةَ، فَأَمَرَهُ فِي الْمَنَامِ أَنْ يَذْبَحَ إِسْمَاعِيلَ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٍ مِنَ اللَّهِ، فَقَالَ لِإِسْمَاعِيلَ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِيَّاهُ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأَبَّتْ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾
 [الصفات: ١٠٢ - ١٠٣] أَي: خَضَعَا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَانْقَادَا لِأَمْرِهِ، وَوَطَّنَا أَنْفُسَهُمَا عَلَى هَذَا
 الْأَمْرِ الْمُزْعَجِ الَّذِي لَا تَكَادُ النَّفُوسُ تَصْبِرُ عَلَى عَشْرِ مِئَاثِهِ، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ﴿١٠٣﴾
 [الصفات: ١٠٣]، نَزَلَ الْفَرْجُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَابِرْهُمْ﴾ ﴿١٠٤﴾ قَدْ
 صَدَقَتْ الرُّبِّيَّةُ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ [الصفات: ١٠٤ - ١٠٥].

فَحَصَلَ تَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى هَذِهِ الْمِحْنَةِ وَالْبُلُوَى الشَّاقَّةِ الْمُزْعَجَةِ،
 وَحَصَلَتِ الْمُقَدِّمَاتُ وَالْجَزْمُ الْمُصَمَّمُ، وَتَمَّ لَهُمَا الْأَجْرُ وَالثَّوَابُ، وَحَصَلَ لَهُمَا
 الشَّرَفُ وَالْقُرْبُ وَالزُّلْفَى مِنَ اللَّهِ، وَمَا ذَلِكَ مِنْ أَلْطَافِ اللَّهِ بِعَزِيزٍ، قَالَ تَعَالَى:
 ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٠٧﴾ [الصفات: ١٠٥ - ١٠٧].

وَأَيُّ ذَبْحٍ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِهِ حَصَلَ بِهِ مَقْصُودُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي لَا تُشَبِّهُهَا
 عِبَادَةٌ، وَصَارَ سُنَّةٌ فِي عَقِبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ، وَيُدْرَكَ بِهِ ثَوَابُهُ
 وَرِضَاهُ: ﴿وَتَرْكَنَّا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ [الصفات: ١٠٨ - ١٠٩].

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَتَمَّ النِّعْمَةَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَرَحِمَ زَوْجَتَهُ سَارَةَ عَلَى الْكِبَرِ وَالْعُقْمِ
 وَالْيَأْسِ بِالْبَشَارَةِ بِالْإِبْنِ الْجَلِيلِ، وَهُوَ إِسْحَاقُ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ، فَحِينَ
 أَرْسَلَ اللَّهُ لُوطًا إِلَى قَوْمِهِ، وَتَمَرَّدُوا عَلَيْهِ، وَحَتَمَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُمْ، وَكَانَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 تَلْمِيزًا لِإِبْرَاهِيمَ، وَلِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ حُقُوقٌ كَثِيرَةٌ، فَمَرَّتِ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا
 لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ بِإِبْرَاهِيمَ بِصُورَةِ الْآدَمِيِّينَ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا وَرَدَّ عَلَيْهِمْ
 السَّلَامَ؛ بِأَدْرَهُمْ بِالضِّيَافَةِ، وَكَانَ اللَّهُ قَدْ أَعْطَاهُ الرِّزْقَ الْوَاسِعَ وَالْكَرَمَ الْعَظِيمَ، وَكَانَ

بَيْتُهُ مَأْوَى لِلْأَضْيَافِ، فَبِالْحَالِ رَاغٍ إِلَى أَهْلِهِ بِسُرْعَةٍ وَخُفْيَةٍ مِنْهُمْ، فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ
مَحْنُودٍ مَشْوِيٍّ عَلَى الرَّضْفِ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ [الذاريات: ٢٧]،
﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]؛ إِذْ ظَنَّ أَنَّهُمْ
لُصُوصٌ: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ ﴿٧٠﴾ [هود: ٧٠].

وَكَانَتْ سَارَةُ قَائِمَةً فِي خِدْمَتِهِمْ، فَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، فَصَرَخَتْ سَارَةُ،
وَصَكَّتْ وَجْهَهَا مُتَعَجِّبَةً، وَمُسْتَبْشِرَةً، وَمُتَرَدِّدَةً وَمُتَحِيرَةً، وَقَالَتْ: ﴿إِنِّي لَأَلِدُ وَأَنَا
عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، وَقَبْلَ ذَلِكَ كُنْتُ عَقِيمًا، وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا؛ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجِيبٌ، قَالُوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
مُجِيدٌ﴾ ﴿٧٣﴾ [هود: ٧٣].

فَبَشَّرَاهُمَا بِإِسْحَاقَ، وَأَنَّهُ يَعْيشُ وَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ، وَيُدْرِكَانِهِ -أَي: يُولَدُ فِي
حَيَاتِهِمَا-؛ وَلِهَذَا حَمِدَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى تَمَامِ نِعْمَتِهِ وَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وَلْيُعْلَمَنَّ أَنَّ جَمِيعَ مَا قَصَّهُ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ سِيرَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ فَإِنَّا
مَأْمُورُونَ بِهِ أَمْرًا خَاصًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أَيْ: الزُّمُوهَا.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ [الممتحنة: ٤].

الْآيَةُ.

فَمَا هُوَ عَلَيْهِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْأُصُولِ وَالْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَجَمِيعِ مَا قُصِّ
عَلَيْنَا مِنْ نَبِيٍّ فَإِنَّ اتِّبَاعَنَا إِيَّاهُ فِيهِ مِنْ دِينِنَا؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ هَذَا أَمْرًا عَامًّا لِأَحْوَالِهِ
كُلِّهَا؛ اسْتَشْنَى اللَّهُ حَالَهُ مِنْ أَحْوَالِهِ فَقَالَ: ﴿لَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾
[المنحنة: ٤] أَي: فَلَا تَقْتَدُوا بِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّ
اسْتِغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ، ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ
لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

إِنَّ الْمَشَاعِرَ وَمَوَاضِعَ الْأَنْسَاكِ - فِي الْحَجِّ - مِنْ جُمْلَةِ الْحِكَمِ فِيهَا؛ أَنْ فِيهَا
تَذَكِيرَاتٌ بِمَقَامَاتِ الْخَلِيلِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي عِبَادَاتِ رَبِّهِمْ، وَإِيمَانًا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ،
وَحَثًّا عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ، وَكُلِّ أَحْوَالِ الرُّسُلِ دِينِيَّةٍ؛ لِقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] (١). (*)



(١) «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» (١ / ١٩٨ - ٢١٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «سِيرَةُ الْخَلِيلِ ﷺ» - الْجُمُعَةُ ٢٠ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٦ هـ | ٤ -

عَظْمَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَجَلَالَتُهُ

قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَلَا عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝ (٢٩)﴾ [الحج: ٢٦-٢٩].

«يَذْكُرُ -تَعَالَى- عَظْمَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَجَلَالَتُهُ، وَعَظْمَةَ بَانِيهِ؛ وَهُوَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾ ۝ أَيُّ: هَيَّأْنَاهُ لَهُ، وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْهَ، وَجَعَلَ قِسْمًا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ سُكَّانِهِ، وَأَمَرَهُ اللَّهُ بِبِنْيَانِهِ، فَبَنَاهُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ، وَأَسَّسَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَبَنَاهُ هُوَ وَابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا؛ بَأَن يَخْلَصَ لِلَّهِ أَعْمَالُهُ، وَأَنْ يَبْنِيَهُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ.

﴿وَطَهَّرْ بَيْتِي﴾ ۝ أَيُّ: مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي، وَمِنَ الْأَنْجَاسِ وَالْأَدْنَاسِ، وَأَضَافَهُ الرَّحْمَنُ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ، وَلِتَعْظُمَ مَحَبَّتُهُ فِي الْقُلُوبِ، وَلِتَنْصَبَّ إِلَيْهِ الْأَفْدَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلِيَكُونَ أَعْظَمَ لِتَطْهِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ؛ لِكُونِهِ بَيْتَ الرَّبِّ

لِلطَّائِفِينَ بِهِ وَالْعَاكِفِينَ عِنْدَهُ، الْمُقِيمِينَ لِعِبَادَةٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ مِنْ ذِكْرِ، وَقِرَاءَةٍ، وَتَعْلَمِ عِلْمٍ، وَتَعْلِيمِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُرْبِ، ﴿وَالرُّكْعَ السُّجُودَ﴾ ٦٦ أَيِ: الْمُصَلِّينَ، أَيِ: طَهَّرَهُ لَهُؤُلَاءِ الْفَضْلَاءِ الَّذِينَ هَمَّهُمْ طَاعَةُ مَوْلَاهُمْ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ عِنْدَ بَيْتِهِ؛ فَهَؤُلَاءِ لَهُمُ الْحَقُّ، وَلَهُمُ الْإِكْرَامُ، وَمِنْ إِكْرَامِهِمْ تَطْهِيرُ الْبَيْتِ لِأَجْلِهِمْ.

وَيَدْخُلُ فِي تَطْهِيرِهِ تَطْهِيرُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ اللَّاغِيَةِ وَالْأَصْوَاتِ الْمُرْتَفِعَةِ الَّتِي تُشَوِّشُ عَلَى الْمُتَعَبِّدِينَ بِالصَّلَاةِ وَالطَّوَافِ، وَقَدَّمَ الطَّوَافَ عَلَى الْإِعْتِكَافِ وَالصَّلَاةِ؛ لِاخْتِصَاصِهِ بِهَذَا الْبَيْتِ، ثُمَّ الْإِعْتِكَافَ لِاخْتِصَاصِهِ بِجَنَسِ الْمَسَاجِدِ.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ﴾ أَيِ: أَعْلِمَهُمْ بِهِ، وَادْعُهُمْ إِلَيْهِ، وَبَلِّغْ دَانِيَهُمْ وَقَاصِيَهُمْ فَرَضَهُ وَفَضِيلَتَهُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا دَعَوْتَهُمْ أَتَوْكَ حُجَّاجًا وَعُمَرَاءًا، ﴿رِجَالًا﴾ أَيِ: مُشَاهَةً عَلَى أَرْجُلِهِمْ مِنَ الشَّوْقِ، ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أَيِ: عَلَى كُلِّ نَاقَةٍ ضَامِرٍ تَقْطَعُ الْمَهَامَةَ وَالْمَفَاوِزَ، وَتُتَوَاصَلُ السَّيْرَ حَتَّى تَأْتِيَ إِلَى أَشْرَفِ الْأَمَاكِنِ، ﴿مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾ ٦٧ أَيِ: مِنْ كُلِّ بَلَدٍ بَعِيدٍ.

وَقَدْ فَعَلَ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَدَعَا النَّاسَ إِلَى حَجِّ هَذَا الْبَيْتِ، وَأَبْدَى فِي ذَلِكَ وَأَعَادَا، وَقَدْ حَصَلَ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ، أَنَاهُ النَّاسُ رِجَالًا وَرُكْبَانًا مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا.

ثُمَّ ذَكَرَ فَوَائِدَ زِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، مُرَغَّبًا فِيهِ فَقَالَ: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنْفَعَهُمْ لَهُمْ﴾ أَيِ: لِيَنَالُوا بَيْتَ اللَّهِ مَنَافِعَ دِينِيَّةً؛ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْفَاضِلَةِ، وَالْعِبَادَاتِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا فِيهِ، وَمَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةً مِنَ التَّكْسِبِ وَحُصُولِ الْأَرْبَاحِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَكُلُّ هَذَا أَمْرٌ مُشَاهَدٌ، كُلُّ يَعْرِفُهُ.

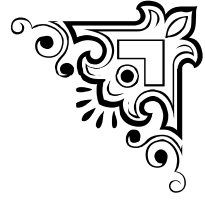
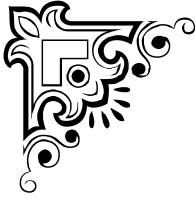
﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ﴾: وَهَذَا مِنَ الْمَنَافِعِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، أَيُّ: لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ ذَبْحِ
الْهَدَايَا؛ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْهَا، وَيَسَّرَهَا لَهُمْ، فَإِذَا ذَبَحْتُمُوهَا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا
وَأَطِيعُوا أَوَّلَاسَ الْفَقِيرِ ٢٨﴾ أَيُّ: شَدِيدَ الْفَقْرِ.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أَيُّ: لِيَقْضُوا نُسُكَهُمْ، وَيُزِيلُوا الْوَسَخَ وَالْأَذَى
الَّذِي لِحَقِّهِمْ فِي حَالِ إِحْرَامِهِمْ، ﴿وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ﴾ الَّتِي أَوْجَبُوهَا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْهَدَايَا، ﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٢٩﴾ أَيُّ:
الْقَدِيمِ، أَفْضَلَ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، الْمُعْتَقِ مِنْ تَسَلُّطِ الْجَبَابِرَةِ عَلَيْهِ، وَهَذَا
أَمْرٌ بِالطَّوَافِ خُصُوصًا بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْمَنَاسِكِ عُمُومًا؛ لِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ، وَلِكَوْنِهِ
الْمَقْصُودَ، وَمَا قَبْلَهُ وَسَائِلُ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيْضًا - لِفَائِدَةٍ أُخْرَى وَهِيَ: أَنَّ
الطَّوَافَ مَشْرُوعٌ كُلَّ وَقْتٍ، وَسَوَاءٌ كَانَ تَابِعًا لِنُسُكِ أَمٍ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ^(١). (*)



(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٢٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «مِنْ دُرُوسِ الْحَجِّ» - الْجُمُعَةُ ٢٤ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٥ هـ |



الْحَجُّ رِحْلَةً إِيْمَانِيَّةً

الْحَجُّ رِحْلَةً إِيْمَانِيَّةً مُبَارَكَةً، رُوحُهُ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَعِيدًا عَنِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ؛ فَالْحَاجُّ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى رَبِّهِ، تَارِكًا أَهْلَهُ، مُتَوَاضِعًا لِمَوْلَاهُ، مُتَنَقِّلًا بَيْنَ الْمَشَاعِرِ الْمُقَدَّسَةِ بِقَلْبٍ خَاشِعٍ، وَلِسَانٍ ذَاكِرٍ، مُقْبِلًا عَلَى رَبِّهِ، يَرْجُو رَحْمَتَهُ، وَيَخْشَى عَذَابَهُ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

«وَاذْكُرْ -أَيُّهَا النَّبِيُّ- إِذْ بَيْنَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَانَ الْبَيْتِ، وَهَيَّأْنَا لَهُ وَقَدْ كَانَ غَيْرَ مَعْرُوفٍ، وَأَمَرْنَاهُ بِبِنَائِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَتَطْهِيرِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْبِدْعِ، وَالنَّجَاسَاتِ؛ لِيَكُونَ رَحَابًا لِلطَّائِفِينَ بِهِ، وَالْقَائِمِينَ الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ»^(١).

لِذَلِكَ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يُهْلُ بِهِ الْحَاجُّ هُوَ شِعَارُ التَّوْحِيدِ قَائِلًا: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ، لَا شَرِيكَ لَكَ».

فَالْحَجُّ مِنْ أَجْلِ مَجَالِي تَوْحِيدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْسَلِخُ مِنْ

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٣٣٥).

مَأْلُوفِ عَادَاتِهِ، وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَانِهِ وَأَحِبَّائِهِ؛ ضَارِبًا فِي أَرْضِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَاصِدًا بَيْتَهُ الْحَرَامَ؛ تَلْبِيَةً لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ، آتِيًا بِإِعْلَانِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ..»: إِجَابَةً مِنْ بَعْدِ إِجَابَةٍ، «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ»، وَهُوَ اسْتِعْلَانٌ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالتَّوْحِيدِ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

«لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ».

فَفِي هَذَا -كَمَا تَرَى- أَعْظَمُ مَا يَكُونُ مِنْ إِعْلَانِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَمَّا أَمَرْنَا بِالْإِثْنَانِ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْعَظِيمَةِ؛ أَمَرْنَا بِأَنْ نَأْتِيَ بِهَا تَامَّةً لَهُ وَحْدَهُ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، لَا لِسِوَاهُ.

فَهَذَا اخْتِصَاصٌ بِهِ وَحْدَهُ، وَهَذَا لَا يَنْصَرِفُ لِأَحَدٍ سِوَاهُ، وَلَا بُدَّ مِنْ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَفِي رَوَايَةٍ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَهَلَ بِالْحَجِّ قَالَ: «لَبَّيْكَ حَجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةً»^(١).

(١) أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهَ فِي «السَّنَنِ»: ٩٦٥ / ٢، رَقْمُ (٢٨٩٠)، مِنْ حَدِيثِ: أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَحْلِ رَثٍّ وَقَطِيفَةٍ تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمٍ أَوْ لَا تُسَاوِي، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ حَجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا، وَلَا سُمْعَةً».

وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ لغيره الألباني في «الصَّحِيحَةِ»: ٢٢٧ / ٦، رَقْمُ (٢٦١٧).

فَهُوَ «إِعْلَانُ بِالتَّوْحِيدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى، وَهُوَ بَرَاءَةٌ مِنْ كُلِّ شَرِكٍ فِي الْأَرْضِ يَكُونُ، وَهُوَ تَوْحِيدٌ بِالْقَلْبِ وَالْقَالِبِ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى حَيْثُ أَمَرَ أَنْ يَصِيرَ النَّاسُ. (*)

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ الْحَجَّ هُوَ مَيْدَانُ ذِكْرِ اللَّهِ -تَعَالَى-؛ فَالذِّكْرُ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ لِلْعِبَادَاتِ عُمُومًا، وَلِلْحَجِّ خُصُوصًا، فَمَا شَرَعَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَلَا السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلَا رَمِي الْجَمَارِ إِلَّا لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۖ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝﴾ (٢٨) [الحج: ٢٧-٢٨].

«وَأَعْلَمُ -يَا إِبْرَاهِيمُ- النَّاسَ بِوُجُوبِ الْحَجِّ عَلَيْهِمْ يَأْتُوكَ عَلَى مُخْتَلَفِ أَحْوَالِهِمْ، مُشَاءً وَرُكْبَانًا عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ مِنَ الْإِبِلِ -وَهُوَ: الْخَفِيفُ اللَّحْمِ مِنَ السَّيْرِ وَالْأَعْمَالِ، لَا مِنَ الْهَزَالِ-؛ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ بَعِيدٍ؛ لِيَحْضُرُوا مَنَافِعَ لَهُمْ؛ مِنْ مَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِمْ، وَثَوَابِ أَدَاءِ نُسُكِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، وَتَكْسِبِهِمْ فِي تِجَارَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ وَلِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى ذَبْحِ مَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ فِي أَيَّامٍ مُعَيَّنَةٍ هِيَ: عَاشِرُ ذِي الْحِجَّةِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «أَحْوَالُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَجِّ» - الْجُمُعَةُ ٧ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٢٩ هـ | ٥-١٢-٢٠٠٨ م.

وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَهُ؛ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ هَذِهِ الذَّبَائِحِ اسْتِحْبَابًا، وَيُطْعَمُوا مِنْهَا الْفَقِيرَ الَّذِي اشْتَدَّ فَقْرُهُ»^(١).

وَيَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٩٩ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٠].

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ حَرَجٌ فِي أَنْ تَطْلُبُوا رِزْقًا مِنْ رَبِّكُمْ بِالرِّيحِ مِنَ التِّجَارَةِ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ رَاجِعِينَ مِنْ (عَرَفَاتٍ) -وَهِيَ الْمَكَانُ الَّذِي يَقِفُ فِيهِ الْحُجَّاجُ يَوْمَ التَّاسِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ-؛ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّلْبِيَةِ وَالدُّعَاءِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ (الْمُزْدَلِفَةِ)، وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ الَّذِي هَدَاكُمْ إِلَيْهِ، وَلَقَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْهُدَى فِي ضَلَالٍ لَا تَعْرِفُونَ مَعَهُ الْحَقَّ.

وَلِيَكُنْ انْدِفَاعُكُمْ مِنْ (عَرَفَاتٍ) الَّتِي أَفَاضَ مِنْهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مُخَالَفِينَ بِذَلِكَ مَنْ لَا يَقِفُ بِهَا مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِعِبَادِهِ الْمُسْتَغْفِرِينَ التَّائِبِينَ، رَحِيمٌ بِهِمْ.

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٣٣٥).

فَإِذَا أَتَمَّمْتُمْ عِبَادَتَكُمْ، وَفَرَعْتُمْ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ؛ فَأَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالشَّاءِ عَلَيْهِ مِثْلَ ذِكْرِكُمْ مَفَاخِرَ آبَائِكُمْ وَأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ، فَمِنَ النَّاسِ فَرِيقٌ يَجْعَلُ هَمَّهُ الدُّنْيَا فَقَطْ، فَيَدْعُو قَائِلًا: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا صِحَّةً وَمَالًا وَأَوْلَادًا، وَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ حَظٌّ وَلَا نَصِيبٌ؛ لِرَغْبَتِهِمْ عَنْهَا، وَقَصْرِ هَمِّهِمْ عَلَى الدُّنْيَا^(١).

فِي الْحَجِّ - فِي أَمَاكِنَ سِتَّةٍ - كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَعْلِنُ بِالدُّعَاءِ وَيُطِيلُهُ جِدًّا، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ شَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ جَمَعَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ جَمَعَ تَقْدِيمَ مَعَ الْقَصْرِ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَمْتَدَّ الْمُدَّةُ الزَّمَنِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ أَيُّ: مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعَصْرِ مَجْمُوعَةً مَقْصُورَةً مَعَ الظُّهْرِ لِتَمْتَدَّ الْمُدَّةُ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ لِلذِّكْرِ وَلِلدُّعَاءِ، وَالِابْتِهَالِ وَالرَّجَاءِ، وَالتَّوَجُّهِ إِلَى رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِإِنَابَةٍ وَإِخْلَاصٍ، سَائِلِينَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَوَائِجَهُمْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَفِي وَقْتِ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعْطِي اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَنْ يُرِيدُ، وَيَتَفَضَّلُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَنْ يَتَكَرَّمُ عَلَيْهِ كَمَا فِي النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: «أَلَا هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ أَلَا هَلْ مِنْ سَائِلٍ حَاجَةٍ فَأُعْطِيَهُ إِيَّاهَا؟ أَلَا هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟»، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ^(٢).

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٣١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: ٣ / ٢٩ رقم (١١٤٥)، ومسلم في «الصحيح»: ١ /

فَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ بَعْدَ أَنْ يُصَلِّيَ الْعَصْرَ مَجْمُوعَةً مَقْصُورَةً مَعَ الظُّهْرِ يَتَوَجَّهُ إِلَى الصَّخْرَاتِ، وَيَتَوَجَّهُ إِلَى قِبْلَةِ الْمُسْلِمِينَ رَافِعًا يَدَيْهِ دَاعِيًا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ فَهَذَا مَوْطِنٌ.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، بَعْدَ أَنْ يُصَلِّيَ الْفَجْرَ إِلَى أَنْ يُسْفِرَ جِدًّا - يَعْنِي: الصُّبْحَ -، يَدْعُو اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا شَاءَ.

ثُمَّ يَدْفَعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَنًى؛ مِنْ أَجْلِ رَمِي جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ الْكُبْرَى.

وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ عِنْدَ رَمِي الْجَمَرَاتِ، وَكَانَ يَبْدَأُ بِالْجَمْرَةِ الصَّغْرَى، فَكَانَ يَرْمِي بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، ثُمَّ يَتَوَجَّهُ إِلَى الْقِبْلَةِ دَاعِيًا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دُعَاءً طَوِيلًا^(١)؛ قَالَ الْعُلَمَاءُ: «كَمِثْلِ قِرَاءَةِ

٥٢١ - ٥٢٢ رقم (٧٥٨)، مِنْ حَدِيث: أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». وزاد مسلم في روايته: «...، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ».

وهذا الحديث حديث متواتر جاء عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم، انظر: «إرواء الغليل»: ٢/ ١٩٥ رقم (٤٥٠)، وقد أفرَدَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حديث النزول بالشرح في جزء مفرد، نشره زهير الشاويش باسم: شرح حديث النزول، (بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٦، ١٤٠٢ هـ).

(١) أخرج البخاري في «الصحیح»: ٣/ ٥٨٣-٥٨٤ رقم (١٧٥١ و ١٧٥٢ و ١٧٥٣)، مِنْ حَدِيث: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

أَنَّهُ كَانَ يَرْمِي الْجَمْرَةَ الدُّنْيَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، يُكَبِّرُ عَلَىٰ إِثْرِ كُلِّ حَصَاةٍ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ حَتَّىٰ

سُورَةِ الْبَقَرَةِ»^(١).

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَرْمِي الْجَمْرَةَ الْوُسْطَى بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ مُكَبَّرًا، ثُمَّ يَتَوَجَّهَ إِلَى الْقِبْلَةِ دَاعِيًا رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دُعَاءً طَوِيلًا، ثُمَّ يَرْمِي جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَهِيَ الْجَمْرَةُ الْكُبْرَى وَلَا يَدْعُو بَعْدَهَا.

فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ مَوَاطِنَ.

ثُمَّ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ الصَّافَا وَعِنْدَ الْمَرْوَةِ بِالدُّعَاءِ

=

يُسْهَلُ -أي: ينزل إلى السهل من بطن الوادي حتى لا يصيبه ما يتطاير من الحصى-، فَيَقُومُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، فَيَقُومُ طَوِيلًا، وَيَدْعُو وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ، ثُمَّ يَرْمِي الْوُسْطَى، ثُمَّ يَأْخُذُ ذَاتَ الشِّمَالِ فَيُسْهَلُ، وَيَقُومُ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، فَيَقُومُ طَوِيلًا، وَيَدْعُو وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ، وَيَقُومُ طَوِيلًا، ثُمَّ يَرْمِي جَمْرَةَ ذَاتِ الْعَقَبَةِ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي، وَلَا يَقِفُ عِنْدَهَا، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُولُ: «هَكَذَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَفْعَلُهُ».

(١) أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف»: ١/٣٣٩/٤، والأزرقي في «أخبار مكة»:

١٧٨-١٧٩، والفاكهي في «أخبار مكة»: ٤/٣٠٢ رقم (٢٦٧٦)، بإسناد صحيح، عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُومُ عِنْدَ الْجَمْرَتَيْنِ مِقْدَارَ مَا يَقْرَأُ الرَّجُلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ».

وفي رواية عند البيهقي في «السنن الكبرى»: ٥/١٤٩ رقم (٩٦٦٧)، من طريق: وَبَرَّةَ، قَالَ: «قَامَ ابْنُ عُمَرَ حِينَ رَمَى الْجَمْرَةَ عَنْ يَسَارِهَا نَحْوَ مَا لَوْ شِئْتَ قَرَأْتَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ».

قال البيهقي: «وَرَوَيْنَا عَنْ أَبِي مَجْلَزٍ فِي حَزْرِ قِيَامِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «وَكَانَ قَدْرَ قِرَاءَةِ سُورَةِ يُوسُفَ»، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ بِقَدْرِ قِرَاءَةِ سُورَةِ مِنَ الْمِثْنِ»، وانظر: «فتح

الباري» لابن حجر: ٣/٥٨٤.

الْمَعْرُوفِ عَنْهُ ﷺ؛ فَهَذِهِ سِتَّةُ مَوَاطِنَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو فِيهَا رَبَّهُ دُعَاءَ طَوِيلًا طَيِّبًا.

وَأَمَّا الذِّكْرُ: فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَنَا «أَنَّ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ - وَهِيَ يَوْمُ الْقَرِّ، وَالْيَوْمُ الثَّانِي عَشَرَ، وَالْيَوْمُ الثَّلَاثَ عَشَرَ - أَيَّامٌ أَكُلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا» (١).

وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه يُكَبِّرُ فِي قُبَّتِهِ بِمِنَى فَيُكَبِّرُ أَهْلَ الْمَسْجِدِ، فَإِذَا سَمِعَهُمْ مِنْ بَخَارِجِ الْمَسْجِدِ؛ كَبَّرَ أَهْلَ الْأَسْوَاقِ حَتَّى تَرْتَجَّ مِنِّي تَكْبِيرًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا هَدَاهُمْ، وَعَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا (٢). (*)

وَأَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ حَتَّى بَعْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ؛ فَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكر أثر عمر رضي الله عنه؛ البخاري معلقا مجزوما به في «الصحيح»: ٤٦١/٢، وأخرجه موصولا: سعيد بن منصور في «السنن» كما في «تغليق التعليق»: ٣٧٩/٢، والفاكهي في «أخبار مكة»: ٢٥٨-٢٦٠ رقم (٢٥٨٠ و ٢٥٨١)، وابن المنذر في «الأوسط»: ٢٩٩/٤ رقم (٢١٩٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: ٣/٣١٣ رقم (٦٢٦٧)، بإسناد صحيح، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ:

«كَانَ عُمَرُ يُكَبِّرُ فِي قُبَّتِهِ بِمِنَى فَيُكَبِّرُ أَهْلَ الْمَسْجِدِ، فَيُكَبِّرُ بِتَكْبِيرِهِمْ أَهْلَ مِنَى، وَيُكَبِّرُ بِتَكْبِيرِهِمْ أَهْلَ الْأَسْوَاقِ حَتَّى تَرْتَجَّ مِنِّي تَكْبِيرًا».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: «حُطْبَةُ عِيدِ الْأَضْحَى ١٤٣٨ هـ: مِنْ دُرُوسِ الْحَجِّ» - الْجُمُعَةُ ١٠ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٨ هـ/ ١-٩-٢٠١٧ م.

ذِكْرًا ﴿البقرة: ٢٠٠﴾.

فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ، وَذَبَحْتُمْ ذَبَائِحَكُمْ -بَعْدَ رَمِي جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ وَالْإِسْتِقْرَارِ بِمِنَى-؛ فَادْكُرُوا اللَّهَ بِالتَّحْمِيدِ، وَالتَّمْجِيدِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مِثْلَ ذِكْرِكُمْ مَفَاخِرَ آبَائِكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، بَلْ أَكْثَرَ ذِكْرًا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلذِّكْرِ وَالْحَمْدِ مُطْلَقًا. (*)

فَيَأْنَسُ الْحَاجُّ بِالذِّكْرِ، وَتَطْمَئِنُّ نَفْسُهُ بِهِ، يَقُولُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: يَزُولُ قَلْقَاهَا وَاضْطِرَابُهَا، وَتَحْضُرُهَا أَفْرَاحُهَا وَلَذَائِهَا، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أَيُّ: حَقِيقٌ بِهَا وَحَرِيٌّ أَلَّا تَطْمَئِنَّ لَشَيْءٍ سِوَى ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَلَدُّ لِلْقُلُوبِ وَلَا أَشْهَى وَلَا أَحْلَى مِنْ مَحَبَّةِ خَالِقِهَا، وَالْأُنْسِ بِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَعَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهَا بِاللَّهِ وَمَحَبَّتِهَا لَهُ يَكُونُ ذِكْرُهَا لَهُ، هَذَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ذِكْرَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ؛ مِنْ تَسْبِيحٍ، وَتَهْلِيلٍ، وَتَكْبِيرٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذِكْرِ اللَّهِ كِتَابُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ ذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ؛ فَعَلَى هَذَا مَعْنَى طُمَأْنِينَةِ الْقُلُوبِ بِذِكْرِ اللَّهِ: أَنَّهَا حِينَ تَعْرِفُ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامَهُ تَطْمَئِنُّ لَهَا؛ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ الْمُسِينِ الْمُؤَيَّدِ بِالْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ، وَبِذَلِكَ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ؛ فَإِنَّهَا لَا تَطْمَئِنُّ إِلَّا بِالْيَقِينِ وَالْعِلْمِ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَضْمُونٌ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيلُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الْمُمْتَحَنَةُ:

وَأَكْمَلَهَا، وَأَمَّا مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ فَلَا تَطْمَئِنُّ بِهَا، بَلْ لَا تَزَالُ قَلِقَةً مِنْ تَعَارُضِ الْأَدِلَّةِ وَتَضَادِّ الْأَحْكَامِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَهَذَا إِنَّمَا يَعْرِفُهُ مَنْ خَبَرَ كِتَابَ اللَّهِ وَتَدَبَّرَهُ، وَتَدَبَّرَ غَيْرَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ فَإِنَّهُ يَجِدُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَرْقًا عَظِيمًا^(١).

وَيَتَذَكَّرُ الْحَاجُّ فِي حَجَّتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَيْثُ تَجْتَمِعُ الْأَعْدَادُ الْعَظِيمَةُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيَتَذَكَّرُ النَّاسُ زِحَامَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-^(٢): «إِنَّ الْحَاجَّ يَتَذَكَّرُ بِتَحْصِيلِ الزَّادِ زَادَ الْآخِرَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَلِيَحْذَرَ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ فَاسِدَةً بِالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، فَلَا تَصْحَبُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ؛ كَالطَّعَامِ الرُّطْبِ الَّذِي يَفْسُدُ فِي أَوَّلِ مَنَازِلِ السَّفَرِ، فَيَقْبِي صَاحِبُهُ وَقْتَ الْحَاجَةِ مُتَحِيرًا، وَإِذَا فَارَقَ الْحَاجُّ وَطَنَهُ، وَدَخَلَ الْبَادِيَةَ، وَشَهِدَ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ وَالصَّعَابَ وَالشَّدَائِدَ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ بِذَلِكَ خُرُوجَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِالْمَوْتِ إِلَى مِيقَاتِ الْقِيَامَةِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْأَهْوَالِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَتَذَكَّرَ وَقْتَ إِحْرَامِهِ وَتَجَرُّدِهِ مِنْ ثِيَابِهِ أَنَّهُ يَلْبَسُ كَفَنَهُ، وَأَنَّهُ سَيَلْقَى رَبَّهُ بِزِيٍّ مُخَالَفٍ لِزِيِّ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ يَأْتِي رَبَّهُ مُتَجَرِّدًا مِنَ الدُّنْيَا وَرَفَعَتِهَا وَغُرُورِهَا، مَا مَعَهُ إِلَّا عَمَلُهُ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

وَإِذَا لَبَّى فَلْيُسْتَحْضِرْ بِتَلْبِيَّتِهِ إِجَابَةَ اللَّهِ تَعَالَى إِذْ قَالَ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، وَلْيَرْجُ الْقَبُولَ، وَلْيَخْشَ عَدَمَ الْإِجَابَةِ، وَلْيَتَذَكَّرْ خَيْرَ مَنْ لَبَّى

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٨٣).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٤٨).

وَأَجَابَ النَّدَاءَ مُحَمَّدًا ﷺ وَصَحَابَتَهُ الْكَرَامَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ -، وَلِعِزِّمْ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَاقْتِفَاءِ سُنَّتِهِ، وَاتِّبَاعِ طَرِيقِهِ.

وَإِذَا وَصَلَ إِلَى الْحَرَمِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَرْجُو الْأَمْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَأَنْ يَخْشَى إِلَّا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبِ عِنْدَ اللَّهِ، مُعْظَمًا رَجَاءُهُ فِي رَبِّهِ، مُحْسِنًا ظَنَّهُ بِهِ، فَإِذَا رَأَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ اسْتَحْضَرَ عَظَمَةَ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ، وَعَظُمْتَ خَشْيَتُهُ لَهُ، وَازْدَادَ لَهُ هَيْبَةً وَإِجْلَالًا، وَشَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى تَبْلِيغِهِ رُتَبَةَ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَتْ شِعْرُ عَظَمَةِ الطَّوَافِ بِهِ؛ فَإِنَّهُ صَلَاةٌ.

وَأَمَّا الْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ، وَالْمَيْتُ بِمُزْدَلِفَةَ، ثُمَّ فِي مِنًى؛ فَيَتَذَكَّرُ بِمَا يَرَى مِنْ اازْدِحَامِ الْخَلْقِ، وَارْتِفَاعِ أَصْوَاتِهِمْ، وَاخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ بِذَلِكَ مَوْقِفَ الْقِيَامَةِ، وَاجْتِمَاعِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَمَا فِيهِ مِنْ أَهْوَالٍ وَشَدَائِدٍ: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَنِّ الْمَفْرُورُ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنْبِئُوا الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ ﴿[القيامة: ١٠-١٣].

وَإِذَا جَاءَ رَمْيُ الْحِمَارِ فَاقْصِدْ بِذَلِكَ الْإِنْقِيَادَ لِلْأَمْرِ، وَإِظْهَارَ الرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ، وَامْتِثَالِ السُّنَّةِ، وَاتِّبَاعِ الطَّرِيقَةِ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى حُظُوظِ النَّفْسِ وَرَغَبَاتِهَا. (*).

لَا شَكَّ أَنَّ الْحَجَّ مَوْسِمٌ لَتَعْزِيزِ الْعَلَقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ فَبِالْحَجِّ يَتَعَارَفُ النَّاسُ، وَيَتَأَلَّفُونَ وَيَتَرَاحَمُونَ، فَتَتَجَلَّى الْأُخُوَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي أَبْهَى صَوَرِهَا؛ فَمِنْ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «الْجَوْهَرَةُ الْفَرِيدَةُ: شَرْحُ رُكْنِ الْحَجِّ» (مُحَاضَرَةٌ: ٢٥)، الْخَمِيسُ ٦ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ | ٨-٩-٢٠١٦م.

أَهْدَافِ الْحَجِّ: أَنَّهُ تَوْثِيقٌ لِمَبْدَأِ التَّعَارُفِ وَالتَّعَاوُنِ؛ حَيْثُ يَقْوَى التَّعَارُفُ، وَيَتِمُّ التَّشَاوُرُ، وَيَحْصُلُ تَبَادُلُ الآرَاءِ، وَذَلِكَ بِالنُّهُوضِ بِالْأُمَّةِ، وَرَفْعِ مَكَانَتِهَا الْقِيَادِيَّةِ بَيْنَ الْأُمَمِ. (*)

عَلَى أَنَّنَا نُوَكِّدُ أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَكْتَمِلَ حَجُّ إِنْسَانٍ دُونَ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِالْفَضَائِلِ، وَيَتَجَنَّبَ الرِّذَائِلَ، فَالْحَجُّ سُلُوكٌ وَمَسْئُولِيَّةٌ وَخُلُقٌ حَسَنٌ؛ فَلْيَحْرِصْ مَنْ نَوَى الْحَجَّ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَكَرِيمِ الْخِصَالِ، وَلْيُعَوِّدْ نَفْسَهُ الصَّبْرَ وَالْإِحْتِمَالَ؛ لِأَنَّ «السَّفَرَ قِطْعَةً مِنَ الْعَذَابِ»^(٢)، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلْيَجْتَنِبِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَلْيَحْرِصْ عَلَى الْأَوْقَاتِ، وَلْيُوَدِّ الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ، وَلْيَحْرِصْ عَلَى أَلَّا يَصْحَبَ إِلَّا مُؤْمِنًا؛ لِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»^(٣).

الْحَجُّ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَمِنْ أَجَلِ الطَّاعَاتِ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَهُوَ مِنَ الْأَرْكَانِ الَّتِي لَا يَسْتَقِيمُ دِينُ الْعَبْدِ إِلَّا بِهَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «الْجَوْهَرَةُ الْفَرِيدَةُ: شَرْحُ رُكْنِ الْحَجِّ» (مُحَاضَرَةٌ: ٢٥)، الْخَمِيسُ ٦ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٧هـ | ٨-٩-٢٠١٦م.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٨٠٤)، وَمُسْلِمٌ (١٩٢٧).

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٣٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٩٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الْمَشْكَاةِ» (٥٠١٨).

يَنْبَغِي لِلْحَاجِّ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ؛ كَالْكَرَمِ، وَالسَّمَاخَةِ، وَالشَّهَامَةِ، وَالْإِنْسَاطِ إِلَى رُفْقَتِهِ، وَإِعَانَتِهِمْ بِالْمَالِ وَالْبَدَنِ، وَإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى قِيَامِهِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ. (*)

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِثَالًا لِلتَّوَاضُعِ شَاخِصًا، مِثَالًا لِلْبُعْدِ عَنِ الْكِبَرِ وَالْعُجْبِ مِثَالًا وَقَائِمًا - صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ -.

وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» (٢)؛ فَإِنَّ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يَنْبَغِي أَنْ يُلتَزَمَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ، وَهُوَ خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ - صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم وَبَارَكَ عَلَيْهِ -.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِثَالًا لِلْعَبْدِ الْقَانِتِ الْمُتَنَبِّهِ: «لَا تُطْرُونِي» (٣) كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ﷺ (٤)» (٥).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الْحُجُّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣ هـ | ١٢ - ١٠-٢٠١٢ م.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٢٩٧)، مِنْ حَدِيثِ: جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) (الْإِطْرَاءُ): هُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الْمَدْحِ، وَالْكَذِبُ فِيهِ، «الْنَهَايَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ» (٣/ ١٢٣) مَادَّة: (طَرَأَ).

(٤) لِأَنِّي مُؤَصِّفٌ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالرَّسَالَةِ، فَلَا تَقُولُوا فِيَّ شَيْئًا يُنَافِيهِمَا مِنْ نُعُوتِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ.

(٥) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٤٥، ٦٨٣٠)، مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَحَقَّقَ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، سُلُوكًا وَتَطْيِيقًا وَعَمَلًا، وَكَانَ لِلَّهِ مُتَوَاضِعًا. (*)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَظْلِمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٥) [الحج: ٢٥].

وَمَنْ يُرِدْ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الْمَيْلَ عَنِ الْحَقِّ ظُلْمًا، وَيَعْصِ اللَّهَ فِيهِ؛ نَذَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ مُوجِعٍ فِي الْآخِرَةِ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ السَّيِّئَةَ فِي الْحَرَمِ أَعْظَمُ مِنْهَا فِي غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهَا تَضَاعَفُ فِيهِ، وَأَنَّ الِهَمَّ بِالسَّيِّئَةِ فِي الْحَرَمِ مُوَآخِذٌ عَلَيْهِ. (*) (٢).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧) [البقرة: ١٩٧].

وَقْتُ الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ وَهِيَ: «شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ»؛ لِأَنَّ أَرْكَانَ الْحَجِّ تُسْتَوْفَى فِيهَا، وَتُؤْخَذُ الْأُهْبَةُ لَهُ فِيهَا، وَيُحْرَمُ بِهِ -أَيُّ بِالْحَجِّ فِيهَا-، فَمَنْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ وَأَوْجَبَ عَلَيْهَا فِي الْأَشْهُرِ الْمَعْلُومَاتِ الْحَجَّ بِالْإِحْرَامِ؛ فَيُحْرَمُ عَلَيْهِ الْجِمَاعُ وَمُقَدَّمَاتُهُ الْقَوْلِيَّةُ وَالْفِعْلِيَّةُ، وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ الْمَعَاصِي وَالْمِرَاءُ وَالْمُخَاصَمَةُ، فَإِذَا كُنْتُمْ قَدْ تَنَزَّهْتُمْ فِي حَجِّكُمْ عَنْ كُلِّ شَرٍّ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ اجْتَمَعْتُمْ لِعَمَلِ الْخَيْرِ؛ فَتَنَافَسُوا فِيهِ، وَتَبَادَلُوا النِّفْعَ، وَاعْمَلُوا عَلَى مَا يُقْوِي

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: حُطْبَةِ: «تَوَاضَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ» - الْجُمُعَةُ ٢١ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ

١٤٣١هـ/ ٢٩-١٠-٢٠١٠م.

(*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيلُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الحج: ٢٥].

جَمْعُكُمْ، وَيُزِيلُ الضَّرَّ عَنْكُمْ، وَيُدْفَعُ عَنْكُمْ كَيْدَ الْكَائِدِينَ.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَهُوَ الَّذِي يُثَبِّتُكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَزَوَّدُوا بِالتَّقْوَى لِمَعَادِكُمْ عِنْدَمَا تَرَحَّلُونَ عَنِ الدُّنْيَا بِالْمَوْتِ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ زَادٍ يَتَزَوَّدُ الْإِنْسَانُ بِهِ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ -تَعَالَى-، بِالتَّزَامِ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى النِّعَمِ الْمُقِيمِ فِي الْجَنَّةِ.

وَخَافُوا عِقَابِي، وَالتَّزَمُوا بِشَرِيعَتِي، وَاشْتَغَلُوا بِعِبَادَتِي يَا ذَوِي الْعُقُولِ الْوَاعِيَةِ الدَّرَاكَةِ الَّتِي تَعْقِلُ الْمَعَارِفَ فَتُمْسِكُ بِهَا، وَتَعْقِلُ النُّفُوسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: سِلْسِلَةِ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [البقرة:

التَّيْسِيرُ فِي عِبَادَةِ الْحَجِّ

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مِنْ مَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ السَّمَاحَةَ وَالتَّيْسِيرَ،
وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ السَّمَاحَةِ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ
الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟

قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»^(١). وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَالبُخَارِيُّ
فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ».

وَالْحَدِيثُ نَصٌّ فِي أَنَّ الْإِسْلَامَ حَنِيفِيَّةٌ سَمْحَةٌ. (*)

إِنَّ مَدَارَ الشَّرِيعَةِ عَلَى نَفْيِ الْحَرَجِ وَإِثْبَاتِ التَّيْسِيرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ
بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. (*) (٢).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلَّةً أَيْكُمْ
إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٣٦/١)، وَالبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ» (٢٨٧)، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي
«صَحِيحِ الْجَامِعِ» (١٦٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ كِتَابٍ: «دَعَائِمُ مِنْهَاجِ النَّبَوَةِ» (٣٥١).

(*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «مَبْنَى الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّيْسِيرِ» - ٨ / ١١ / ٢٠٠٢ م.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي اخْتَارَكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنْ دُونِ سَائِرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِحَمْلِ
الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَحَمَلِكُمْ وَظِيفَةَ تَبْلِيغِ الدِّينِ الْخَاتِمِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ الَّذِي تَعْبُدُكُمْ بِهِ ضَيْقًا لَا مَخْرَجَ لَكُمْ مِمَّا ابْتُلِيتُمْ
بِهِ، بَلْ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ، فَجَعَلَ التَّوْبَةَ فِي بَعْضِ مَخْرَجًا، وَالْكَفَّارَةَ فِي بَعْضِ
مَخْرَجًا، وَالْقِصَاصَ كَذَلِكَ.

وَشَرَعَ الْيُسْرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَسَّعَ دِينَكُمْ تَوْسِعَةً مِثْلَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ. (*)

فَمَدَارُ شَرِيعَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَى نَفْيِ الْحَرَجِ وَرَفْعِهِ؛ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ فِي مُنْتَهَاهَا
إِنَّمَا هِيَ جَلْبُ مَنْفَعَةٍ وَدَرْءُ مَفْسَدَةٍ.

وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَا كَلَّفَ الْإِنْسَانَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ فِيهِ تَيْسِيرًا وَرَفَعَ
عَنْهُ فِيهِ الْحَرَجَ. (*) (٢).

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَلَ إِلَى الْبَشَرِيَّةِ التَّيْسِيرَ وَالتَّبَشِيرَ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ،
فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوءِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ».
رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -
[الحج: ٦٣].

(*) (٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «مَبْنَى الشَّرِيعَةِ عَلَى التَّيْسِيرِ» - ٨ / ١١ / ٢٠٠٢ م.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: ١ / ٩٣، رَقْم (٣٩).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسلم إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

وَعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسلم لَمَّا بَعَثَهُ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفَرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلی اللہ علیہ وسلم: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنْفَرُوا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(٣).

لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ صلی اللہ علیہ وسلم بِنَبْدِ الْغُلُوِّ وَالتَّنَطُّعِ وَالتَّطَرُّفِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ أُمَّةً وَسَطًا بَيْنَ الْأُمَمِ؛ فِي عَقِيدَتِهَا، وَعِبَادَتِهَا، وَأَخْلَاقِهَا، وَمُعَامَلَاتِهَا، وَالْوَسْطُ: الْعَدْلُ الْخَيْرُ، فَلَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ، وَلَا غُلُوًّا وَلَا جَفَاءً.

وَقَدْ عَابَ اللَّهُ -تَعَالَى- عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ يَتَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) «صحيح مسلم»: ١٣٥٨/٣، رقم (١٧٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح»: ١٦٣/٦، رقم (٣٠٣٨) وفي مواضع، ومسلم في «الصحيح»: ١٣٥٩/٣، رقم (١٧٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح»: ١٠/٥٢٤، رقم (٦١٢٥)، ومسلم في «الصحيح»: ١٣٥٩/٣، رقم (١٧٣٤).

وفي رواية للبخاري: ١/١٦٣، رقم (٦٩)، بلفظ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا».

وَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ بَرَفَعَ الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا
بِشَّرِيعَةٍ سَمَحَةٍ، مِنْ قَوَاعِيدِهَا:

* رَفَعَ الْحَرَجَ.

* وَمِنْ قَوَاعِيدِهَا: أَنَّ الْمَشَقَّةَ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ.

* وَمِنْ قَوَاعِيدِهَا: لَا وَاجِبَ إِلَّا اقْتِدَارًا، وَلَا مُحَرَّمَ مَعَ اضْطِرَارٍّ.

* وَمِنْ قَوَاعِيدِهَا: أَنَّ الضَّرَرَ يُزَالُ، فَلَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ.

«وَنَبِيَّنَا ﷺ مَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ
إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»^(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَالَ أَبُو مُوسَى رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ رضي الله عنه
فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»^(٢). رَوَاهُ مُسْلِمٌ. (*)

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: (٦ / ٥٦٦، رَقْم ٣٥٦٠)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»:

(٤ / ١٨١٣ - ١٨١٤، رَقْم ٢٣٢٧)، مِنْ حَدِيثِ: عَائِشَةَ رضي الله عنها.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: (١٠ / ٥٢٤، رَقْم ٦١٢٥)، وَمُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»:

٣ / ١٣٥٩، رَقْم (١٧٣٤).

وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: ١ / ١٦٣، رَقْم (٦٩)، بَلْفَظٍ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا
تُنْفَرُوا».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «أَهْلُ الْقِبْلَةِ»: الْجُمُعَةُ ١٣ مِنْ شَعْبَانَ ١٤٣٧ هـ | ٢٠-٥-

إِنَّ التَّبْيِيرَ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ يَكُونُ حَسَبَ الْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ مَعَ التَّقْيِيدِ بِأَدَاءِ الْأَحْكَامِ كَمَا شَرَعَ اللَّهُ ﷻ، وَمِنْ ذَلِكَ عِبَادَةُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وَإِتِمَامُهَا يَكُونُ بِأَدَاءِ مَنَاسِكِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي آدَاهُمَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وَقَوْلِهِ ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(١) أَي: آدَوْهَا عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي آدَيْتُهَا بِهَا.

النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ جَلَسَ لِلنَّاسِ يُعَلِّمُهُمْ وَقَدْ بُعِثَ مُعَلِّمًا وَهَادِيًا وَمُنْذِرًا وَبَشِيرًا ﷺ، مَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ أَوْ أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: «افْعَلْ وَلَا حَرَجَ، افْعَلْ وَلَا حَرَجَ»^(٢). (*)



(١) أخرجه مسلم في «الصحیح»: ٢ / ٩٤٣، رقم (١٢٩٧)، من حديث: جَابِرٍ، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ».

وفي رواية للبيهقي في «السنن الكبرى»: ٥ / ١٢٥، بلفظ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ...» الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحیح»: ١ / ١٨٠ رقم (٨٣)، ومسلم في «الصحیح»: ٢ / ٩٤٨ رقم (١٣٠٦)، من حديث: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «أَحْوَالُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَجِّ» - الْجُمُعَةُ ٧ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٢٩ هـ | ٥-١٢-٢٠٠٨ م.

مَا عَلَى الْحَاجِّ قَبْلَ سَفَرِهِ؟

عِبَادَ اللَّهِ! عَلَى مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ أَنْ يُخْلِصَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَصْدِهِ وَعَمَلِهِ، وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَى النَّفَقَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي لَا حُرْمَةَ فِيهَا وَلَا شُبْهَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ «الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَقَدْ غُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»^(١).

وَلْيَحْرِصْ مَنْ نَوَى الْحَجَّ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَكَرِيمِ الْخِصَالِ، وَلْيُعَوِّذْ نَفْسَهُ الصَّبْرَ وَالْإِحْتِمَالَ؛ لِأَنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّقِ عَلَى صِحَّتِهِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلْيَجْتَنِبِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَلْيَحْرِصْ عَلَى الْأَوْقَاتِ، وَلْيُؤَدِّ الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ، وَلْيَحْرِصْ عَلَى أَلَّا يَصْحَبَ إِلَّا مُؤْمِنًا؛ لِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، من حديث: أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠١٨).

وَلْيَكْتُبْ مَنْ نَوَى الْحَجَّ وَصِيَّتَهُ قَبْلَ سَفَرِهِ، وَلْيُوصِ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ، وَلْيَأْمُرْهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَبِالنَّهْيِ الْمُنْكَرَاتِ، وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

فَالْحَجُّ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَمِنْ أَجْلِ الطَّاعَاتِ؛ لِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَهُوَ مِنَ الْأَرْكَانِ الَّتِي لَا يَسْتَقِيمُ دِينُ الْعَبْدِ إِلَّا بِهَا.

وَلَمَّا كَانَتِ الْعِبَادَةُ لَا يَسْتَقِيمُ التَّقَرُّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، وَلَا تَكُونُ مَقْبُولَةً لَدَيْهِ إِلَّا بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، بِأَنْ يَقْصِدَ بِالْعِبَادَةِ وَجْهَ اللَّهِ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ، لَا يَقْصِدُ بِالْعِبَادَةِ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً.

وَالثَّانِي: اتِّبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعِبَادَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

وَالِاتِّبَاعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ يُمَكِّنُ تَحْقِيقَهُ بِمَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَا يُمَكِّنُ تَحْقِيقَ الْإِتِّبَاعِ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِلَّا بِمَعْرِفَةِ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِذَلِكَ كَانَ لَا بُدَّ لِمَنْ أَرَادَ تَحْقِيقَ الْإِتِّبَاعِ أَنْ يَتَعَلَّمَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، بِأَنْ يَتَلَقَّاهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَا، إِمَّا بِطَرِيقِ الْمُكَاتَبَةِ، وَإِمَّا بِطَرِيقِ الْمُشَافَهَةِ.

وَكَانَ مِنْ وَاجِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ وَرِثُوا النَّبِيَّ ﷺ، وَخَلَفُوهُ فِي أُمَّتِهِ؛ أَنْ يُطَبِّقُوا عِبَادَاتِهِمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ عَلَى مَا عَلِمُوهُ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَأَنْ يُبَلِّغُوا ذَلِكَ إِلَى أُمَّتِهِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ؛ لِيَتَحَقَّقَ لَهُمْ مِيرَاثُ النَّبِيِّ ﷺ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَتَبْلِيغًا وَدَعْوَةً، وَلِيَكُونُوا بِذَلِكَ مِنَ الرَّابِحِينَ إِنْ أَرَادُوا الرِّبْحَ حَقًّا؛

لَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ مُفْلِحًا إِلَّا إِذَا آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَى
مَعَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَى مَعَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّبْرِ، فَبِذَلِكَ
يَتَحَقَّقُ الْفَلَاحُ وَالنَّجَاحُ دُنْيَا وَآخِرَةً.

يَنْبَغِي لِمَنْ خَرَجَ إِلَى الْحَجِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ نِيَّةَ التَّقَرُّبِ إِلَى
اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ؛ لِتَكُونَ أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ وَنَفَقَاتُهُ مُقَرَّبَةً لَهُ إِلَى اللَّهِ
جَلَّ وَعَلَا؛ فَ«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١).

وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَخَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ؛ كَالْكَرَمِ، وَالسَّمَاحَةِ، وَالشَّهَامَةِ،
وَالْإِنْسَاطِ إِلَى رُفْقَتِهِ، وَإِعَانَتِهِمْ بِالْمَالِ وَالْبَدَنِ، وَإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ، هَذَا
بِالْإِضَافَةِ إِلَى قِيَامِهِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ. (*)

وَيَلْزَمُ مَنْ نَوَى الْحَجَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَنَاسِكَ، وَمَا يَصِحُّ بِهِ حُجُّهُ - فَالْعِلْمُ
مِنْهُ فَرَضٌ عَيْنٍ، وَمِنْهُ فَرَضٌ كِفَايَةٌ - فَمَنْ أَرَادَ الْحَجَّ ففَرَضُ عَيْنٍ عَلَيْهِ أَنْ
يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَحُجُّ.

وَكَذَلِكَ مَنْ بَلَغَ الْحُلُمَ؛ فَإِنَّهُ فَرَضُ عَيْنٍ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُصَلِّي، لَيْسَ
عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ الْمَوْجُودِ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ مَعَ اخْتِلَافَاتِ الْفُقَهَاءِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي

(١) أخرجه البخاري (رقم ١)، ومواضع، ومسلم (١٩٠٧)، من حديث: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

رضي الله عنه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الْحَجُّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ/

عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ مُجْمَلًا، وَأَنْ يَتَعَلَّمَ مَا تَصَحَّحَ بِهِ عِبَادَتُهُ؛ لِأَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(١).

فَعَلَى مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَحُجُّ، وَهَذَا الْوَاجِبُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ بِحَيْثُ إِنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْهُ بَيْنَ يَدَيِّ رَبِّهِ، فَإِنْ فَرَّطَ وَقَصَّرَ فَهُوَ مُعَاقَبٌ عَلَى ذَلِكَ.

وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يُحْجُّونَ وَهُمْ جُهَالٌ بِالْمَنَاسِكِ لَا يَعْلَمُونَ!! فَيَذْهَبُونَ وَيَرْجِعُونَ وَمَا حَجُّوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي بِمُبْطِلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِي بِمُفْسِدٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَنْزِلُ عَرَفَةَ أَصْلًا، مَعَ أَنَّهُ يَكُونُ قَدْ حَلَ قَرِيبًا مِنْهَا قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ بِأَيَّامٍ، كَمَا يَعْلَمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ يُحْجُّونَ النَّاسَ وَهُمْ جُهَالٌ بِالْمَنَاسِكِ، أَوْ يَبْتَغُونَ التَّيْسِيرَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ يُبْطِلُونَ عَلَيْهِمْ حَجَّهُمْ.

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحُجَّ وَنَوَى الْحَجَّ؛ فَفَرَضَ عَيْنَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَحُجُّ (*).

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ الْحَجَّ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ النَّفَقَةِ وَمَتَاعِ السَّفَرِ، وَيَسْتَصْحِبَ فَوْقَ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ؛ اخْتِيَاظًا لِمَا يَعْرِضُ لَهُ مِنَ الْحَاجَاتِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ عِنْدَ سَفَرِهِ، وَفِي سَفَرِهِ مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ ذَلِكَ:

إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى مَرْكُوبِهِ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»^(٣).

(١) تقدم تخريجه.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ: حُطْبَةِ: «الْحَجُّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ/

١٢-١٠-٢٠١٢م، بَتَصَرُّفٍ.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦)، من طريق: عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ، قَالَ: =

فَإِذَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ فَلْيَذْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ بِتَيْسِيرِ الْمَرْكُوبَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ». وَهَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»^(١).

وَإِذَا نَزَلَ الْعَبْدُ مُنْخَفِضًا فَعَلَيْهِ أَنْ يُسَبِّحَ، وَإِذَا عَلَا شَرَفًا فَعَلَيْهِ أَنْ يُكَبِّرَ؛ فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ رِوَايَةِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا»^(٢).

شَهِدْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنِّي بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ»، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿[الزخرف: ١٣ - ١٤]، ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، ثُمَّ قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّ كَمَا فَعَلْتُ».

وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ (٧٥٣): «سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» (٧/ رَقْم ٢٣٤٢).

(١) «صَحِيحُ مُسْلِمٍ» (١٣٤٢)، مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٩٩٣، وَ٢٩٩٤).

وَإِذَا نَزَلَ الْمُسَافِرُ مَنْزِلًا فَلْيَقُلْ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَإِنْ مَنْ قَالَهَا لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ الَّذِي قَالَهَا فِيهِ» كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١). (*)

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْمِلَنَا جَمِيعًا إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ حُجَّاجًا وَمُعْتَمِرِينَ؛ إِنَّهُ -تَعَالَى- عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. (*)



(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، من حديث: خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ السُّلَمِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «الْحَجُّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ | ١٢ - ١٠-٢٠١٢م.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «مِنْ دُرُوسِ الْحَجِّ» - الْجُمُعَةُ ٢٤ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٥هـ | ١٩-٩-٢٠١٤م.

الْفَهْرَسُ

- ٣ مُقَدِّمَةٌ
- ٤ الْحَجُّ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَفَرَضٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ
- ٦ مِنْ فَضَائِلِ الْحَجِّ وَأَهْدَافِهِ
- ٩ أَحْكَامُ الْحَجِّ وَفَوَائِدُهُ وَأَرْكَانُهُ
- ١٥ طَرَفٌ مِنْ سِيرَةِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ وَمَوَاضِعِ الْمَنَاسِكِ
- ٢٩ عَظَمَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَجَلَالَتُهُ
- ٣٢ الْحَجُّ رِحْلَةٌ إِيْمَانِيَّةٌ
- ٤٧ التَّيْسِيرُ فِي عِبَادَةِ الْحَجِّ
- ٥٢ مَا عَلَى الْحَاجِّ قَبْلَ سَفَرِهِ؟

